

في البلاغة العربية

علم البديع

الدكتور عبد العزيز عتيق





مرکز تحقیقات تکلیف‌های شرعی

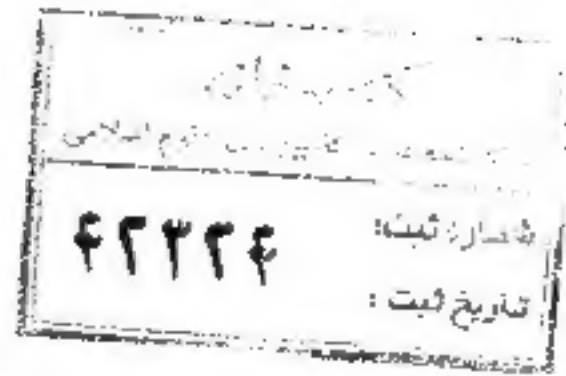
فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ الْعَرَبِيِّ

عَلَيْهِ السَّلَامُ



الدكتور عبد العزيز عطيق





رقم الكتاب : 1718
اسم الكتاب : علم البديع
المؤلف : د. عبد العزيز عتيق
الموضوع : أدب
القياس : 24 × 17
عدد الصفحات : 248

منشورات : دار النهضة العربية
مركز دراسات - مكتبة مركز الدراسات

الزبدانية - بناية كريدية - الطابق الثاني
تلفون : 736093 / 743167 / 743166 1 961 +
فاكس : 736071 / 735295 1 961 +
ص.ب 0749 - 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد إلكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

جميع حقوق الطبع محفوظة

هذا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح
بإنتاج أو نشر أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب،
بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

مقدمة

تألف البلاغة العربية من علوم ثلاثة هي: المعاني، والبيان، والبدیع. ومیدان البلاغة الذي تعمل فيه علومها الثلاثة متضافرة هو نظم الكلام وتأليفه على نحو يخلف عليه نعوت الجمال.

وإدراك سمات الكلام البليغ لا يتأتى إلا عن طريق الدرس والبحث والتأمل. ومن أجل هذا تبدو الحاجة إلى دراسة البلاغة. فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي ترقى بالتعبير سعداً نحو الكمال الفني، كما تضع بين يديه الأدوات التي يستطيع بالتعمس بها والتدرب عليها أن يأتي بالكلام البليغ. وهي في الوقت ذاته جزء مكمل لثقافة الناقد والأديب.

دراسة البلاغة إذن ليست ضرورية فقط لمن يريد أن يجعل اللغة وأدبها ميداناً تخصصه، وإنما هي ضرورية له وللناقد والأديب على حد سواء.

وبعد... فهذه محاضرات ألقيتها على طلبة الصف الثاني بقسم

اللغة العربية وآدابها بجامعة بيروت العربية في علم البديع، أحد علوم
البلاغة العربية.

والجانب الأول من هذه المحاضرات يعالج نشأة البديع، وتطوره،
والمراحل التي مر بها حتى صار علماً قائماً بذاته، هذا مع التعريف بكبار
رجاله وكتبهم والطرق التي سلكوها في دراسته.

أما الجانب الآخر من المحاضرات فدراسة مفصلة تحليلية لأهم فنون
البديع اللفظية والمعنوية، وأثرها في الكلام.

ولعل القارئ يجد في هذه المحاضرات ما يغريه على التوسع في
دراسة علم البديع أحد أصول البلاغة العربية.
والله ولي التوفيق.

المؤلف



مركز تنمية وتطوير المهارات

نشأة البديع وتطوره

البديع كما يقول الخطيب القزويني محمد بن عبد الرحمن في كتابه «التلخيص» هو «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة». ويعرفه ابن خلدون بأنه «هو النظر في تزين الكلام وتحسينه بنوع من التتميق، إما بجمع يفصله، أو تخنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لا اشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك»^(١).

وقبل التعرض لمباحث هذا العلم بالشرح والاستيفاء يجدر بنا أن نؤرخ له فنتتبع نشأته وتطوره، لأن ذلك من شأنه أن يعطي صورة واضحة عن أبعاد هذا العلم، وأن يعين على تفهم مباحثه وتذوقها. ومهما اختلفت آراء الأدباء والنقاد في جدوى هذا العلم وقيمته فإن دراسته لازمة لطلاب البلاغة العربية ونقاد الأدب العربي طالما أن الظواهر البديعية تأتي عفواً أو تكلفاً على السنة الشعراء والأدباء كعنصر من عناصر فن القول.

(١) مقالة ابن خلدون ص ١٠٦٦.

ومن النقد من يهمل هذا الجانب البديعي عند تعرضه بالنقد لنص شعري أو نثري والحكم عليه ظناً منه أنه جانب لا يقدم ولا يؤخر كثيراً في الحكم على جودة التعبير وحسن أدائه للمعنى بكل ظلاله.

ولكن دراسة أصول هذا العلم والأناة في تفهمها وتذوقها جدرة بإقناع الدارس أياً كان بأن استبعاد الجانب البديعي عند الحكم على عمل أدبي هو إجحاف به وانتقاص في الحكم عليه.

حقاً لقد أسرف الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة غاية الإسراف في استعمال المحسنات البديعية، إما إعجاباً بها وإما إخفاء لفقرهم في المعاني، وبهذا انحط إنتاجهم الأدبي. ذلك في نظري هو سبب العزوف عن هذا العلم من جانب بعض الدارسين والنقاد المعاصرين. ولو عرفوا أن العيب ليس في البديع ذاته وإنما هو في سوء فهمه واستخدامه لقللوا من عزوفهم عنه ولأعطوه حقه من العناية والدراسة، ولردوا إليه اعتباره كمعصر بلاغي هام عند تقييم الأعمال الأدبية والحكم عليها.

وكما يقول أبو هلال العسكري: «إن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة»^(١).

وبعد، فقد عرف العرب في شعرهم كل الخصائص الفنية والأساليب البيانية التي تخلع عليه صفة الجمال والإبداع. وكان الشاعر منهم بحسه الفطري وعلى غير دراية منه بأنواع هذه الأساليب البيانية ومصطلحاتها البلاغية يستخدمها تلقائياً كلما جاش بنفسه خاطر وأراد أن يعبر عنه تعبيراً بليغاً.

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٦٧.

وقد اهتمت بعض الجاهليين إلى قيمة بعض هذه الأساليب وأثرها في تقدير الشعر وحفظه من البلاغة، ومن هذه الأساليب ما يمت بصلة إلى هذا أو ذاك بما عرف بعد بعلوم البلاغة العربية الثلاثة، أعني علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

ولعلنا نذكر ما كان يدور في أسواق العرب وأنديتهم من حوار أدبي، كما نذكر كيف كان الشعراء يفدون على زهير بن أبي سلمى في سوق عكاظ وينشدون أمامه أشعارهم ليحكم بينهم متناخرين بما في شعرهم من أساليب التشبيه والمجاز بأنواعه، وكيف كان زهير يقضي لهذا أو ذاك على غيره من الشعراء لأنه أجاد التشبيه أو الاستعارة أو الكناية.

الجاهليون إذن كانوا بطبيعتهم الشعرية الأصيلة يستحسنون بعض الأساليب البلاغية ويستخدمونها في أشعارهم دون علم بمصطلحاتها، تماماً كما كانوا عن سليقة يستخدمون في كلامهم الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً قبل أن يظهر النحاة ويضعوا قواعد الفاعل والمفعول.

وقد أخذ علماء العربية بعد الإسلام يهتمون غاية الاهتمام بعلم البلاغة ليستعينوا به في المحل الأول على معرفة أسرار الإعجاز في القرآن الكريم كتاب الله.

وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري^(١): «اعلم - علمك الله الخير وذلك عليه وقبضه لك وجعلك من أهله - أن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التي رفعت أعلام

(١) كتاب الصائغين ص ١ - ٢.

الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببرايتها، وهتكت حجب الشك بيقينها.

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من حلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها.

ولما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه.....

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، ففاته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوقه، عفى على جميع محاسنه،..... لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه.

وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة - وقد فاته هذا العلم - مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر^(١)، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل.

وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام مشور، أو تأليف شعر منظوم، ونحطي هذا العلم سوء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الرديء المردول،

(١) الغرر: جمع غرة، وهي النفيس من كل شيء. والعرر: جمع عرة، وهي القذر.

وترك الجيد المقبول، فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته وعلمه. وقد قيل: اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من معرفته وعلمه.

وحسبنا هذا القدر من كلام أبي هلال العسكري للدلالة على أهمية علم البلاغة وأحقية بالتعلم.

أوليات البديع:

وإذا انتقلنا من هذا التمهيد إلى علم البديع أحد علوم البلاغة العربية فإننا نلتزم أوليات هذا العلم في محاولة قام بها شاعر عباسي من أبناء الانصار أولع بالبديع في شعره واشتهر بإجادة المدح من مثل قوله في مدح يزيد بن يزيد:

تلقي المنية في أمثال عدتها كالسيف يقذف جلموداً بجلمود
تجود بالنفس إن ضمن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وقوله أيضاً:

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما تعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
هذا الشاعر هو صريع الفوائ مسلم بن الوليد الأنصاري المتوفى سنة ٢٠٨ هجرية، فقد وضع مصطلحات لبعض الصور البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية من مثل الجناس والطباق.

ثم نلتقي من بعده بأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» والمتوفى سنة ٢٥٥ هـ، فهذا الكتاب وإن اشتمل على كثير من الفوائد والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وأسماء الخطباء والبلغاء، مع بيان أقدارهم في البلاغة والخطابة، إلا أن الإبانة عن حدود

البلاغة وأقسام البيان والفصاحة تأتي مبثوثة في تضاعيفه، متشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير.

وقد أشار الجاحظ إلى البديع بقوله: «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان، والشاعر الراعي كثير البديع في شعره، ويشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار»^(١).

وكلمة البديع عنده تعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية وإن كان لم يوضحها توضيحاً دقيقاً، ومع تعرضه لبعض أنواع البديع فإنه لم يحاول وضع تعريفات ومصطلحات لها، لأن اهتمامه عند الكلام عنها كان بتقديم الأمثلة والنماذج، لا بوضع القواعد.



ابن المعتز:

ولعل أول محاولة علمية جادة في ميدان علم البديع هي تلك المحاولة التي قام بها خليفة عباسي ولي الخلافة يوماً وليلة ثم مات مقتولاً وقيل مخنوقاً سنة ٢٩٦ هجرية.

هذا الخليفة هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، والمولود سنة ٢٤٧ هجرية. لقد كان شاعراً مطبوعاً مقتدرًا على الشعر، سهل اللفظ، جيد القريحة، حسن الإبداع للمعاني، مغرمًا بالبديع في شعره، وبالإضافة إلى ذلك كان أديباً بليغاً مخلصاً للعلماء، والأدباء معدوداً من جملتهم، وله بضعة عشر مؤلفاً في فنون شتى وصل إلينا منها: ديوانه، وطبقات الشعراء، وكتاب البديع.

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٥.

وإذا كان عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ للهجرة وصاحب كتابي: «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» هو واضع نظرية علم البيان وعلم المعاني فإن عبد الله بن المعتز هو واضع علم البديع، كما يفهم ذلك من كتابه المسمى «كتاب البديع» الذي ألفه سنة ٢٧٤ للهجرة. ويبدو أنه ألف هذا الكتاب رداً على من زعم من معاصريه أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري وأبا نواس هم السابقون إلى استعمال البديع في شعرهم.

ومن ذلك يقول في مقدمة كتابه^(١): «قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس من تقلبهم^(٢) وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه»

ثم إن حبيب بن أوس الطائي «أبا نواس» من بعدهم شغف به حتى غلب عليها وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عتبي الإفراط وثمره الإسراف. وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من خير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل.

«وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بمصالح بن عبد

(١) كتاب البديع لابن المعتز ص ١.

(٢) تقلبهم: حاول التشبه بهم.

القدوس^(١) في الأمثال، ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه، وغلب على مد ميدانه. وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى.

وفي موضع آخر يشير إلى غرضه من تأليف كتاب البديع فيقول:

«وانما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع»^(٢). وفي موضع ثالث يشير إلى أنه أول من نظم وجمع فنون هذا العلم فيقول: «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»^(٣).

والمتصفح لكتاب البديع يجد أنه يشتمل أولاً على خمسة أبواب يتحدث فيها ابن المعتز عن أصول البديع الكبرى من وجهة نظره وهي: الاستعارة، والجناس، والمطابقة، وهذه أعجاز الكلام على ما تقدمها، أما الباب الخامس من البديع فهو - كما يقول - «مذهب سماء عمرو الجاحظ المذهب الكلامي». وهذا باب ما أعلم أنه وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٤). وليس عدم علمه مانعاً علم غيره، ولم يستشهد عليه بأعظم من شواهد القرآن.

وينبه ابن المعتز في كتابه على أنه اقتصر بالبديع على الفنون الخمسة السابقة اختصاراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة، ولهذا فمن أحب أن يقتدي به ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل.

(١) شاعر عباسي، من حكماء الشعراء، أمر المهدي بقتله وصلبه على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ. لزندقته.

(٢) كتاب البديع ص ٣.

(٣) نفس المرجع ص ٥٨.

(٤) كتاب البديع ص ٥٣.

ورغبة منه في أن تكثر فوائد كتابه للمتأدين أتبع هذه الفنون الخمسة التي اعتمدها أصولاً لعلم البديع، بذكر ثلاثة عشر فناً بديعاً هي:

- ١ - الالتفات، ٢ - اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد، ٣ - الرجوع، ٤ - حسن الخروج من معنى إلى معنى، ٥ - تأكيد المدح بما يشبه الذم، ٦ - تجاهل العارف، ٧ - هزل يراد به الجدل، ٨ - حسن التضمين، ٩ - التعريض والكناية، ١٠ - الإفراط في الصفة «المبالغة»، ١١ - حسن التشبيه، ١٢ - إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له، وهو ما عرفه البلاغيون المتأخرون بلزوم ما لا يلزم من القوافي، ١٣ - حسن الابتداءات.

وقد ذكر أن هذه الأنواع الثلاثة عشر هي بعض محاسن الكلام. والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي الخلل أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن عمله وذكره (١) بإلا أضفنا إلى ذلك أصول البديع الخمسة كان معنى ذلك أن ابن المعتز، قد اخترع ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع.

هذا وليس في كتاب ابن المعتز ذكر لمباحث قبله في قضايا البديع سوى الأصمعي الذي قال إن له بحثاً في الجناس، وسوى الجاحظ الذي قال إنه أول من سمي «المذهب الكلامي» (٢) باسمه.

(١) كتاب البديع ص ٥٨.

(٢) المذهب الكلامي: أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دهور خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام لأن علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة. مثل (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا) - فهذا دليل قاطع على وحدانية الله، وقام الدليل أن نقول: لكنها لم تفسدنا فليس فيها آلهة غير الله.

وكانني به وقد بدأ المحاولة الأولى في وضع علم البديع أدرك أن هناك من قد يقلل من شأن هذه المحاولة أو يغير في بعض المصطلحات التي اختارها، أو يزيد في بعض الأبواب، أو يأخذ عليه تقصيراً في تفسير بعض الشواهد الشعرية التي استدل بها. ومن أجل هذا يقول: «ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتحميه مشاركتنا في فضيلته فيسمى فناً من فنون البديع بغير ما سميناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً متثوراً، أو يفسر شعراً لم تفسره، أو يذكر شعراً قد تركناه ولم يذكره، إما لأن بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فآلقيناه، أو لأن فيما ذكرناه كافياً ومغنياً. وليس من كتاب إلا وهذا ممكن فيه لمن أراذه، وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع، وفي دون ما ذكرناه مبلغ الغاية التي قصدناها»^(١).

والخلاصة أن ابن المعتز وضع كتاب البديع قد قام بالمحاولة الأولى في سبيل استقلال هذا العلم ^{بالبلاغة} وتحديد مباحثه التي كانت من قبل مختلطة بمباحث علم المعاني وعلم البيان، كما لفت أنظار الناس إلى أن البديع كان موجوداً في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنه كان مفرقاً يأتي عفواً، ثم جاء الشعراء المحدثون من أمثال بشار ومسلم بن الوليد وأبي نواس وأبي تمام فأكثروا منه في أشعارهم وقصدوا إليه.

وكان مما استحدثه ابن المعتز في كتابه أيضاً وضع مصطلحات لأنواع البديع في زمنه، ونقد ما أتى معيياً من كل نوع.

وتلك بلا شك محاولة علمية جادة تلقفها البلاغيون والنقاد من بعده

(١) كتاب البديع ص ٢ - ٣.

وأضافوا إليها ما استكملوا به مباحث هذا العلم وقضاياها، كما سنرى فيما بعد.

قدامة بن جعفر:

ومن النقاد الذين تلقفوا محاولة ابن المعتز العلمية في علم البديع وأضافوا إليها معاصره قدامة^(١) بن جعفر في كتابه «نقد الشعر». وقدامة هذا كان نصرانياً ثم اعتنق الإسلام في أواخر القرن الثالث الهجري، وتوفي سنة ٣٣٧ للهجرة في أيام الخليفة العباسي المطيع لله. وقد درس فيما درس الفلاسفة والمنطق وتأثر بهما تفكيراً ومنهجاً في كل مؤلفاته التي بلغت أربعة عشر كتاباً في موضوعات شتى من الأدب وغيره.

وإذا كان ابن المعتز قد قصر كتابه على علم البديع، فإن كتاب قدامة كان في نقد الشعر بصحة عامة، وجاء تعرضه فيه للمحسنات البديعية كعنصر من العناصر التي نألف منها في نقد الشعر.

والمحسنات البديعية التي أوردها قدامة في تضاعيف كتابه «نقد الشعر» بلغت أربعة عشر نوعاً. وهذه على حسب ترتيب ورودها في الكتاب: الترصيع، الغلو، صحة التقسيم، صحة المقابلات، صحة التفسير، التتميم، المبالغة، الإشارة، الإرداف، التمثيل. التكافؤ، التوشيح، الإيغال، الالتفات..

ومن هذه المحسنات ما التقى فيها مع ابن المعتز مع اختلاف في التسمية الاصطلاحية فقط. فالتتميم، والتكافؤ، والتوشيح عنده هي عند ابن المعتز على التوالي: الاعتراض، والطباق، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها. وهناك محسنان يلتقيان فيهما ويتفقان على تسميتهما وهما:

(١) انظر ترجمة حياته في معجم الأدباء لياقوت ج ١٧ ص ١٢.

المبالغة، والالتفات، وإن كان قدامة قد خص الأخير بشق واحد من شقي «الالتفات» عند ابن المعتز.

وإذا كان الاثنان قد اتفقا في خمس محسنات بديعية، مع اختلاف في تسمية بعضها واتفاق في تسمية البعض الآخر، فإن قدامة يكون في الواقع قد اهتدى إلى تسعة أنواع جديدة من أنواع البديع، هي: الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والإيغال.

وبعد فقد سمي قدامة كتابه «نقد الشعر» فهل نستطيع حقاً أن نعتبره هو وكتاب «البديع» لابن المعتز من كتب النقد؟.

وإجابة على السؤال نقول: عل الرغم من التسمية فإن الكتابين بعيدان عن النقد الذي هو فن توليفة الأساليب، وأقرب إلى أن يكون كلاهما كتاباً علمياً يرمي إلى إيضاح مبادئ، واستنباط أنواع من البديع، ووضع تقسيمات. وكل ما يمكن قوله إنها يمدان الناقد بعنصر من العناصر التي تعينه في عملية نقد العمل الأدبي وإصدار الحكم عليه.

أبو هلال العسكري:

ثم ظهر في القرن الرابع مع قدامة وعاش بعده أكثر من نصف قرن عالم آخر، هو أبو هلال العسكري، الذي حاول في واحد من أهم مؤلفاته، وأعني به كتاب «الصناعتين - الكتابة والشعر» أن يحقق هدفين. أحدهما أن يتم في توسع ما بدأه قدامة من بحث صناعة الشعر ونقده، سالكاً في ذلك - كما يقول - مذهب صناع الكلام من الشعراء والكتاب لا مذهب المتكلمين والمتفلسفة كما فعل قدامة.

أما ثاني الهدفين، فهو ألا يقف بالبحث الأدبي عند حد الشعر، وإنما

يتعداه - غير مسبوق في هذا الباب - إلى بحث صناعة الكتابة أو النثر بصفة عامة، فليس الأدب شعراً فحسب، وإنما هو شعر ونثر معاً.

وأبو هلال هذا هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، نسبة إلى مدينة «عسكر مكرم» من كور الأهواز بين البصرة وفارس. وكان من أبنائها علماء أعلام خدموا الثقافة العربية وأضافوا إليها ما لديهم من معرفة.

ومن هؤلاء العلماء أبو أحمد العسكري^(١) المحدث (٢٩٣ - ٣٨٢ هـ) وأبو هلال العسكري الأديب، صاحب كتاب «الصناعتين»، والأول خال الثاني وأستاذه.

وقد غلب الأدب والشعر على أبي هلال العسكري إنتاجاً وتالياً، وكتبه المنشورة بين الناس تدل على تمكنه من علوم العربية أو علوم الأدب الثمانية، وأعني بها: اللغة، والنحو، والصرف، والعروض، والقوافي، وصناعة الشعر، وأخبار العرب، وأسابيعهم.

وهذه العلوم عند الأقدمين لم تكن تعني «الأدب» وإنما تعني أنها لازمة لثقافة الأديب، ولحاجة الأديب إليها في تكوينه عدوها من الأدب.. ولا ريب في أنه بمقدار جهل الأديب بأي من هذه العلوم يكون نقصه في الأدوات التي تؤهله يتمكن لممارسة الأدب في أية صورة من صورته.

ومؤلفات أبي هلال العسكري لا تدل على تبحره في علوم العربية، فحسب، وإنما تدل أيضاً على غزارة إنتاجه وتنوعه، فقد خلف لنا عشرين

(١) انظر ترجمة أبي أحمد وأبي هلال في معجم الأدباء لياقوت ج ٨ ص ٢٢٣ - ٢٦٧.

كتاباً عالج فيها، كما يفهم من أسمائها، موضوعات شتى في اللغة والأدب والبلاغة والنقد والتفسير، وكلها تتم عن نوع ثقافته وثقافة العصر الذي عاش فيه.

على أن ما انتهى إلينا من إنتاجه لم يزد حتى الآن على ثلاثة كتب هي: «كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر»، وكتاب «ديوان المعاني» من جزأين، وكتاب لغوي اسمه «المعجم في بقية الأشياء»، أما بقية كتبه فلا يزال الموجود منها مخطوطات في مكتبات العالم، تنتظر من يتوفر على تحقيقها ونشرها.

أبو هلال العسكري إذن كان في عصره إماماً في العلم والأدب، إماماً وعى كثيراً من معارف سابقه وأضاف إليها، وأثر بها فيمن جاء بعده. ولئن كانت أجيال كثيرة تتلمذت عليه في حياته، فإن أجيالاً أكثر وأكثر ظلت على توالي العصور تتلمذ من بعده على آثاره العلمية التي تميزت بالأصالة.

ولكن لعل من العجيب أن تكون حياة من لم يكن بليغاً في حياته الخاصة بمقدار ما كان بليغاً في حياته العلمية. فهو على ما كان له من قدم راسخة في العلم وولاء له، واشتغال دائم به، قد قضى حياته مغموراً خامل الذكر مضيقاً عليه في الرزق، يلتمسه من احتراف البزاة وبيع الثياب في الأسواق.

مفارقة عجيبة إذن بين ما كان عليه من غنى علمي وفقير مادي، وقد دفعه تناقض الأحوال هذا إلى السخط، السخط على نفسه، وعلى الدنيا التي تختل فيها موازين العدل بين الناس. ومن ثم لا يجد أمامه ما يفرع إليه غير الشعر يبت إليه ذات نفسه، ويفضي إليه بهيمومه، ويعبر فيه عن حخطه، فيقول:

إذا كان مالي من يلفظ المعجم^(١) وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالأصالة والحجى وما ربحت كفي من العلم والحكم؟
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي ولا يلعن القرطاس والحبر والقلم؟
ويقول من قصيدة أخرى:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قرود
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويجروهم عني رثانة كسوقي هجاء قبيحاً ما عليه مزيد
على أن حياة أبي هلال لا تعيننا فيما نحن بسبيله هنا من تتبع تاريخ علم
البديع، وإنما هي نبذة ترينا في هذه الدنيا حظوظ بعض من يوالون العلم
وينقطعون له، ولا يسمحون لأنفسهم أن يتاجروا فيه، أو يقايضوا عليه
بأي ثمن!

ولكن ما يعيننا هنا ونحن نتبع تاريخ علم البديع وتطوره هو
وكتاب الصناعتين - الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، والذي جعله
هشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً في ٤٦٢ صفحة.

وغايتنا من كتاب الصناعتين لا تنصب عليه كله، وإنما هي تنصب
على الباب التاسع^(٢) منه، وهو الباب الذي عقده وشرح البديع والإبانة
عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه. وهذا الباب يشتمل على خمسة وثلاثين
فصلاً، تشغل من حيز الكتاب نحو رבעه.

وقبل الشروع في الكلام على ما أورده أبو هلال العسكري في الباب

(١) المعجم بالتحريك: النوى نوى التمر والنبق، يريد أن ماله يشبه مال من يلفظ النوى
للنقوت. والغرض من التشبيه هنا بيان المقدار، أي للدلالة على مقدار ماله.

(٢) انظر كتاب الصناعتين ص ٢٦٦ - ٤٣٠.

التاسع من كتاب الصناعتين الذي عقده لشرح البديع والإبانة عن وجوهه، وحصر أبوابه وفنونه، نذكر استناداً على ما سبق شرحه أن أنواع البديع التي كانت معروفة في عصره وسبقه إليها غيره قد بلغت سبعة وعشرين نوعاً.

والفضل في اختراع ما عرف من أنواع البديع إلى عصر أبي هلال يرجع إلى عبد الله بن المعتز وقدامة بن جعفر. فأما ابن المعتز مؤسس علم البديع فقد اهتم إلى ثمانية عشر نوعاً من البديع، وأما قدامة فقد اهتم إلى تسعة أنواع فقط، وبذلك يكون الاثنان قد اهتمتا معاً إلى سبعة وعشرين نوعاً من أنواع البديع، وهذا كل ما ورد إلى علمنا عما كان معروفاً من فنون علم البديع إلى عصر أبي هلال العسكري الذي بلغ بها إلى سبعة وثلاثين نوعاً.

ودراسة الباب التاسع من كتاب الصناعتين تظهرنا على أن أبا هلال قد أورد فيه من أنواع البديع خمسة وثلاثين نوعاً.

عقد لكل نوع منها فصلاً خاصاً، كما أورد في الباب العاشر من كتابه نوعين آخرين هما حسن الابتداءات، والاشتقاق.

وبالنظر في أنواع البديع عند أبي هلال ومقارنتها بما جاء به كل من ابن المعتز وقدامة من أنواع البديع تتجلى الحقائق التالية:

١ - جاري أبو هلال ابن المعتز في اعتبار الاستعارة، والكناية، من أنواع البديع، مع أنهما في الواقع من فنون علم البيان.

٢ - كذلك جاري ابن المعتز وقدامة معاً في اعتبار «الاعتراض» نوعاً بديعياً، كما اعتبر هو نفسه «التذليل» نوعاً بديعياً آخر، مع أن

«الاعتراض» و«التذيل» أسلوبان من أساليب الإطناب الذي هو أحد أبواب علم المعاني.

٣- جاري ابن المعتز وقدامة في أربعة أنواع بديعية اتفقا فيها وهي: الطباق، المبالغة، رد الاعجاز على الصدور، الالتفات.

٤- أخذ مما انفرد به ابن المعتز ستة أنواع هي: الجناس، الرجوع، تجاهل العارف، المذهب الكلامي، حسن الابتداءات، تأكيد المدح بما يشبه الذم، والفني سماء هو «الاستثناء».

٥- كذلك أخذ مما انفرد به قدامة تسعة أنواع هي: صحة المقابلة، صحة التقسيم، صحة التفسير، الإشارة، الإرداف، التمثيل، الغلو، الترصيع، الإيغال.

٦- اهتدى أبو هلال نفسه إلى ستة أنواع بديعية، وقد حدد هذه الأنواع التي اكتشفها وعرفها بها في كتابه بقوله: «وزدت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع: التشبيه، والمجاز، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف»^(١).

٧- وأخيراً أورد أبو هلال ثمانية أنواع بديعية لم يرد لها ذكر عنده أو عند قدامة أو ابن المعتز، وهذه هي: التوشيح، والعكس والتبديل، والنكميل، والاستطراد، وجمع المؤنث والمختلف، والسلب والإيجاب، والتعطف، والاشتقاق.

والاحتمال الوحيد بالنسبة لهذه الأنواع الثمانية أنها قد انتهت إلى علم أبي هلال مما أورده المتقدمون غير قدامة وابن المعتز. نقول ذلك لأنها

(١) كتاب الصنائع ص ٢٦٧.

لم ترد ضمن ما اهتدى إليه كلاهما من أنواع البديع . وليس من الجائز أن تكون من اختراع أبي هلال نفسه ، إذ لو كان الأمر كذلك لذكرها مع الأنواع الستة التي نص في كتابه على أنها زيادة من عنده على ما أورده المتقدمون من أنواع البديع .

وتلخيصاً لكل ما سبق من أنواع البديع نذكر أن ما وصل إلينا مما اكتشف منها إلى عصر أبي هلال العسكري قد بلغ واحداً وأربعين نوعاً ، منها : ثمانية عشر نوعاً من اختراع ابن المعتز ، وتسعة أنواع من اختراع قدامة ، وستة أنواع زادها أبو هلال العسكري ، وأخيراً ثمانية أنواع ذكرها أبو هلال ، ولعله قد عثر عليها لدى بعض من سبقوه من علماء البيان باستثناء قدامة وابن المعتز .

ابن رشيق القيرواني :

وإذا ما انتقلنا إلى القرن الخامس الهجري فإننا نلتقي بأديب مغربي اهتم بالشعر وآدابه اهتماماً كبيراً ، وحظي البديع منه بنصيب ملحوظ من البحث والدراسة .

ذلك الأديب المغربي هو أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني أحد بلغاء القيروان وشعرائها ، ولد بالمسيلة وقيل بالمحمدية سنة ٣٩٠ للهجرة ، وأبوه مملوك رومي من موالى الأزد ، وكانت صنعة أبيه في بلده المحمدية الصياغة ، فعلمه أبوه صنعة ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر ، ثم تافت نفسه إلى الاستزادة منه وملاقة أهل الأدب فارتحل إلى مدينة القيروان سنة ٤٠٦ للهجرة ، واشتهر بها ، ومدح صاحبها المعز بن باديس الصنهاجي ، ولم يزل بها إلى أن هجم العرب عليها وقتلوا أهلها وخربوها ، فانتقل إلى جزيرة صقلية وأقام فيها بقرية «مازر» إلى أن توفي سنة ٤٦٤ ، وقيل سنة ٤٥٦ من الهجرة .

ولابن رشيقي مصنفات منها: رسالة قراضة الذهب، وكتاب في شذوذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها، وعدة رسائل، ثم كتاب «العمدة» في محاسن الشعر وآدابه، أو في معرفة صناعة الشعر ونقله وهيبته.

والكتاب الذي يعنينا هنا من كتبه هو كتاب «العمدة» لأنه تعرض فيه بالذكر والشرح لطائفة كبيرة من فنون البديع يهمننا التعرف عليها.

ويحدثنا ابن رشيقي في خطبة الكتاب عن سبب تأليفه ومضمونه فيقول: «قد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب،... ووجدت الناس مختلفين فيه متخلفين عن كثير منه: يقدمون ويؤخرون ويقلون ويكثرون، قد بؤبؤه أبواباً مبهمه، ولقبوه ألقاباً متهمه^(١)، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتهى مذهباً هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون «العمدة» في محاسن الشعر وآدابه، إن شاء الله تعالى. وعولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، ~~وكوني لا أكتب~~ وكجاء الاختصار: إلا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتي بالأمر على وجهه، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك. وربما نعلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب تستراً بينهم، ووقوعاً دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، ويئت للناس المبتدئ وجه الصواب فيه... حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه»^(٢).

(١) متهمه بفتح الهاء: أي مشكوك فيها.

(٢) كتاب العمدة ١ ص ٤ - ٥.

والآن ماذا عن فنون البديع في كتاب «العمدة» لابن رشيق، إن هذا الكتاب يتألف من جزءين يضمنان نحو مائة باب حاول مصنفه أن يجمع فيها كل ما وقف عليه مما كتب عن صناعة الشعر ووسائله البيانية والبديعية، وعمله فيه، كما يفهم من الكلمة التي اقتبسناها من خطبة الكتاب، عمل جمع وتبويب لا عمل بحث ودرس، وإن كانت له من حين لآخر الملاحظات وملاحظات دقيقة تنم عن سعة اطلاعه وبصره بالشعر.

ومما يلاحظ على الكتاب أن المؤلف أفرد أبواباً منه لمباحث البيان، وأخرى للمحسنات البديعية، وفي ذلك ما يوحي بأنه قد بدأ يستقر في أذهان النقاد ورجال البلاغة أن البيان شيء والبديع شيء آخر. والكتاب على الرغم من كل شيء قد وحى لنا مادة ضخمة من البلاغة والنقد معاً.

ويستهل ابن رشيق كلامه عن البديع بباب يعرف فيه كلاً من المخترع والبديع من الشعر  ثم ينتهي بذكر أول من قام بجمع البديع.

فالمخترع من الشعر ~~هو من لم يلق~~ هو من لم يلق إليه قائله، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه. ويقرر أن أول الناس اختراعاً للشعر هو امرؤ القيس، وأن له في شعره اختراعات كثيرة أورد نماذج منها. ومن الشعراء المخترعين عنده أيضاً طرفة بن العبد.

ثم يستطرد فيقول: «وما زالت الشعراء تخرج إلى عصرنا هذا وتولد، غير أن ذلك قليل في الوقت». ويدفعه ذكر التوليد إلى تعريفه فيقول: «والتوليد: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة، فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره، ولا يقال له أيضاً «مركة» إذا كان ليس آخذاً على وجهه»^(١).

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ٢٣٢.

والفرق عنده بين الاختراع والإبداع - وإن كان معناهما في العربية واحداً - أن الاختراع: خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، وأن الإبداع: إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثرت وتكررت، فصار الاختراع للمعنى، والإبداع للفظ. فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق. بعد ذلك يوضح كلمتي «الاختراع» و«الإبداع» ثم ينتقل بالكلام إلى علم البديع فيذكر أنه ضروب كثيرة وأنواع مختلفة، وأنه سوف يذكر منه ما وسعته القدرة، وساعدت فيه الفكرة.

وعنده أن ابن المعتز هو أول من جمع البديع، وألف فيه كتاباً، لم يعد إلا خمسة أبواب: الاستعارة إليها، ثم التجنيس، ثم المطابقة، ثم رد الإيجاز على الصدور، ثم المذهب الكلامي.

وقد عد ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن، وأباح أن يسميها من شاء ذلك بديعاً، وخالفه من يقول في كتابه كيف التشبيه عليها حيثما وقعت من كتابه العمدة^(١).

أما أنواع البديع التي أوردها ابن رشيق في كتابه «العمدة» فتبلغ تسعة وعشرين؛ منها عشرون نوعاً سبقه إليها ابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري، وهي: الاستعارة، الإشارة، التجنيس، التصدير أو رد الإعجاز إلى صدورها، المطابقة، المقابلة، التقسيم، الترصيع، التسهيم، التفسير، الاستطراد، الالتفات، الاستثناء وهو تركيد المدح بما يشبه الذم، التتميم، المبالغة، الغلو، الإيغال، المذهب الكلامي، التضمين، التمثيل.

(١) كتاب العمدة ج ١ ص: ٢٣٢ - ٢٣٦.

أما الأنواع التسعة الباقية والتي لم يرد لها ذكر عند رجال البديع السابقين فهي: التورية، والترديد، والتفريع، والاستدعاء، والتكرار ونقي الشيء بإيجابه، والإطراد، والاشتراك، والتغاير.

وليس لنا بالنسبة لهذه الأنواع التسعة الجديدة إلا أحد احتمالين: أحدهما أنه أخذها عن بعض المتقدمين في البديع غير ابن المعتز وقدامة وأبي هلال العسكري، وثانيهما أنه هو نفسه قد زادها على ما أورده المتقدمون، وإن لم يكن قد نص على ذلك كما فعل أبو هلال مثلاً.

وتتميز دراسة ابن رشيق لما ذكره من فنون البديع بأنها أكثر تفصيلاً، وإن كان قد سار فيها على منهاج أشبه بمنهاج أبي هلال فهو أولاً يعرف الفن البديعي ثم يشفعه بالأمثلة والشواهد من منظوم الكلام ومثوره، وقلما عرض للشاهد بالتوضيح اعتماداً على فطنة القارئ.

وفي المصطلحات نلاحظ أنه لا أثر لمصطلحاً يعينه لفن بديعي، فإنه يذكر اسمه الآخر ~~عنه~~ ^{هذا هو ذاك} من سبقوه إلى البديع، ففي كلامه عن «الاستثناء» يقول: وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم، وفي كلامه عن «المطابقة» يقول: وسمى قدامة هذا النوع - الذي هو المطابقة عندنا - التكافؤ... ولم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس من جميع من علمته، وفي «الالتفات» يقول: وهو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك، حكاه قدامة... وهكذا. وقد جرى مع سابقه في اعتبار الاستعارة من البديع مع أنها من أصول علم البيان.

عبد القاهر الجرجاني:

وفي القرن الخامس الهجري نلتقي بأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، الإمام النحوي وأحد علماء الكلام على مذهب

الأشاعرة. ولد وعاش بجرجان ولم يفارقها حتى توفي سنة ٤٧١ هـ من الهجرة.

وله مؤلفات قيمة في النحو والعروض وإعجاز القرآن، والتفسير، والبلاغة، ولكنه اشتهر أكثر ما اشتهر بكتابه «دلائل الإعجاز» الذي وضع فيه نظرية علم المعاني، وكتابه «أسرار البلاغة» الذي وضع فيه نظرية علم البيان.

وهو لهذا يعد بحق مؤسس البلاغة العربية، والمشتد لأركانها، والموضح لمشكلاتها، والذي عل نهجه سار المؤلفون من بعده، وأتموا البيان الذي وضع أسسه.

والمتصفح لكتابه السابقين «الدلائل» و«الأسرار» يرى أنه لم يحاول فيها وضع نظرية في علم البديع، كما فعل بالنسبة لعلمي المعاني والبديع، ولو أنه فعل لأعفى أصحاب البديع من توزيع مباحثهم فيه توزيعاً حال بينها وبين أن تصير علماً واضح المعالم والمباحث كالمعاني والبيان.

ومع ذلك فقد تكلم في «أسرار البلاغة» عن ألوان من البديع هي: الجناس، والسجع، وحسن التعليل، مع الإشارة أحياناً إلى الطباق والمبالغة.

وحديثه عن هذه المحسنات ليس لأغراض بديعية بمقدار ما هو لأغراض بيانية. وتفصيل ذلك أنه في «أسرار البلاغة» يحاول الكشف عن المعاني الإضافية التي تشتمل عليها الأساليب البيانية من تشبيه وتمثيل ومجاز واستعارة، ولهذا أجمل في مقدمة «الأسرار» النظرية التي توصل إليها في «دلائل الإعجاز» والتي تأتي أن يكون للألفاظ من حيث هي ألفاظ مزية ذاتية في الكلام، فالشأن دائماً للتراكيب وصورة نظمها وتأليفها. ولكي يقيم على ذلك الدليل الذي لا يدحض عرض للجناس والسجع من فنون

البديع، وراح يثبت أن الجمال فيها لا يرجع إلى جمال الألفاظ من حيث هي، وإنما يرجع إلى ترتيب المعاني في الذهن ترتيباً يؤثر في النفس، ويضرب لذلك مثلاً من أمثلة الجناس وهو قول أبي الفتح البستي:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أو دعاني

ويعلق عليه بقوله: «قد أعاد - الشاعر - عليك اللفظ، كأنه يخذلك عن الفائدة وقد أعطاه، وبوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووقاها، فهذه السريرة صار التجنيس، وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة، من حل الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع»^(١).

فجمال الجناس عنده في مثل بيت أبي فتح البستي يرجع إلى المفاجأة، وأن الكلمة ترى كأنها لا تعطيك شيئاً جديداً وهي في الحقيقة تعطي كثيراً، وبذلك يؤثر الجناس التمام بما فيه من خداع وخفاء لا يلبث أن ينكشف، ومن ثم عد من حل الشعر، وذكر في أقسام البديع. وكل هذا يرجع إلى المعنى النفسي لا إلى اللفظ، ويضرب مثلاً للجناس الناقص قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواص قواضب

ويعقب عبد القاهر بأن تأثير الجناس ينبعث من المعنى النفسي أيضاً، فإن السامع يتوهم قبل أن يرد عليه الحرف الأخير في كلمتي «عواصم، وقواضب» أن الكلمتين السابقتين لهما ستعودان ثانية، ومن هنا يأتي التأثير، يقول: «تعود إليك الكلمة مؤكدة حتى إذا تمكنت في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن

(١) أسرار البلاغة ص: ٤ - ٥.

يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال» (١).

وعن السجع يورد عبد القاهر أمثلة للحسن منه قول القائل: اللهم
هب لي حمداً، وهب لي مجداً، فلا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال.
ومثل قول الفضل بن عيسى الرقاشي: سل الأرض، فقل: من شق
أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً، أجابتك
اعتباراً. ثم يذكر أنه ليس هنا لفظ اجتلب من أجل السجع، وترك له ما
هو أحق بالمعنى منه.

وعلى ذلك فالجناس أو السجع عنده لا يكتسب صفة القبول أو
الحسن حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، بحيث لا
تبتغي به بدلاً، ولا تمجد عنه حولاً، بل أن المعنى هو الذي يقود المتكلم
نحو الجناس والسجع، لا أن يفقده هو المعنى إليهما.

وفي معرض البحث في السرقات الشعرية تكلم عبد القاهر عن
التعليلات الخيالية التي يسوقها الشعراء في أشعارهم والتي أطلق عليها
البلاغيون اسم «حسن التعليل» كقول القائل:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

ولإجمال القول هنا أن عبد القاهر الذي وضع نظريتي علم المعاني
وعلم البيان لم يتوسع في البديع توسعه في المعاني والبيان، وأن حديثه في
«أسرار البلاغة» عن الجناس والسجع وحسن التعليل والطباق لم يكن
مقصوداً لذاته، وإنما جاء كلامه عنها في معرض الاستدلال على نظريته
القائلة بأن الألفاظ ليست لها مزية ذاتية في الكلام من حيث هي ألفاظ،

(١) نفس المرجع ص: ١٢.

ولما المزية تأتي دائماً من قبل التراكيب وصورة نظمها وتأليفها. ذلك لأن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب.

الزنجشيري:

وعلى الطريق نلتقي في القرن السادس الهجري بأحد علماء الاعتزال الكبار وأعني به جار الله محمود بن عمر الزنجشيري المتوفى سنة ٥٣٨ من الهجرة.

وللزنجشيري مؤلفات قيمة في النحو واللغة والأدب، ولكن أهم كتاب اشتهر به منذ عصره هو كتاب «الكشاف» الذي قدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، وأشاد به حتى أهل السنة على الرغم من نزعة صاحبه الاعتزالية.

وتفسير «الكشاف» هو في الواقع خير تطبيق على كل ما اهتدى إليه عبد القاهر الجرجاني من قواعد المعاني والبيان، فقد اتخذ الزنجشيري من آي الذكر الحكيم أمثلة وشواهد يوضح بها كل ما استوعبه من قواعد عبد القاهر البلاغية، سواء ما اتصل منها بعلم المعاني أو علم البيان.

وإذا كان عبد القاهر هو مؤسس علم المعاني وعلم البيان، وهو من استنبط من جزئيات كل علم الكثير من قواعده، فإن الزنجشيري هو من أكمل هذه القواعد بالإضافات الجديدة التي وفق إليها وجاءت مفرقة في تضاعيف تفسيره «الكشاف».

وهكذا استطاع الرجلان أن يضعوا ويكملا قواعد علم المعاني وعلم البيان، ولم يتركا لمن بعدهما إلا فضل استقصاء هذه القواعد عندهما وتنظيمها في كتاب يجمع متفرقاتها ويضم منشورها.

وبما نجد الإشارة إليه هنا، ونحن نتبع تطور علم البديع، أن المتكلمين منذ القرن الخامس من الباقلائي إلى عبد القاهر ممن عنوا بإعجاز القرآن قد نحوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في القرآن الكريم، لأنه في رأيهم لا يدخل في بحث الإعجاز القرآني، نظراً لأن كثيراً من فنونه مستحدث، وما ورد منه في القرآن إنما جاء دون قصد وتكلف.

على هذا الأساس رأينا فيما سبق كيف أن عبد القاهر وهو يعني نفسه بالكشف عن نظريتي علم المعاني وعلم البيان في كتابه «دلائل الإعجاز» لم يعن أو يهتم بالبديع وفنونه.

حقاً لقد عرض في «أسرار البلاغة» للجناس والسجع وحسن التعليل والطباق، ولكن حديثه عنها قد جاء في معرض الاستدلال بها على نظريته في نظم الكلام.

وعلى غرار عبد القاهر نرى الزمخشري لا يعني في تفسيره «الكشاف» بما جاء في آيات القرآن من بديع إلا عرضاً، لأنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً من علوم البلاغة، وإنما يعدّه دليلاً لها.

وقد كانت نظريته هذه إلى البديع سبباً في أن لا يقف طويلاً أمام ما ورد في القرآن من فنون بديعية. ومن ثم فالزمخشري في ميدان البلاغة رجل بيان لا بديع.

ومع ذلك فقد استدعاء تفسيره البياني في «الكشاف» أن يشير إشارة خفيفة إلى ما ورد في بعض آي الذكر الحكيم من فنون البديع من مثل: الطباق، والمشاكلة، واللف والنشر، والالتفات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، ومراعاة النظير والتناسب، والتقسيم، والاستطراد، والتجريد.

تلك كانت مساهمة الزمخشري في علم البديع، وهي مساهمة لم يكن

القصد منها خدمة مباحث هذا العلم بمقدار ما كان القصد منها بيان أثرها في بلاغة القرآن وإعجازه.

ونلتقي في القرن السادس أيضاً باثنين من رجال البديع هما: الوطواط، وأسامة بن منقذ.

أما الوطواط فهو رشيد الدين العمري المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة، وقد ألف في البلاغة الفارسية كتاباً سماه «حدائق السحر في دقائق الشعر»^(١) والكتاب محاولة دقيقة لتطبيق فنون البديع العربي على الأدب الفارسي. وقد استعان الوطواط على توضيح هذه الفنون بأمثلة وشواهد من الشعر والنثر في الأدبين العربي والفارسي، وكذلك بشواهد من أشعاره بالعربية.



أسامة بن منقذ:

أما رجل البديع الثاني فهو أبو القاسم أسامة بن مرشد بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ من الهجرة. وبنو منقذ كانوا أصحاب حصن أو قلعة قريبة من حماه تدعى «شيزر»، وظلوا يقيمون بهذه القلعة محتملين بمناعتها حتى أصابها الزلزال في منتصف القرن السادس وأتى عليها هدماً وتخريباً، ثم استولى عليها نور الدين محمود بن زنكي وأعاد بناءها ولحكم في بني منقذ فغادروها وتفرقوا في مناح مختلفة.

وأسامة من أكابر بني منقذ وعلمائهم وشجعانهم، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب، منها: كتاب القضاء، وكتاب الشيب والشباب،

(١) ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم الشواربي.

وكتاب ذيل يتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب تازيخ أيامه، وكتاب في أخبار أهله، وكتاب البديع في نقد الشعر.

وفي بني منقذ جماعة من الشعراء كان أسامة أشعرهم وأشهرهم، ومن شعره:

قالوا نهته الأربعون عن الصبا وأخو المشيب يحور ثمت يهتدي
كم جلت في ليل الشباب فدلّه صبح المشيب على الطريق الأقصد
وإذا عددت سنيّ ثم نقصتها زمن الهموم فتلك ساعة مولدي
ومن شعره في الشيخوخة:

لا تحسّدنْ على البقاء معمرأ فالموت أسير ما يشول إليه
وإذا دعوت بطول عمر لا مريء فاعلم بأنك قد دعوت عليه^(١)
وقد ذكرنا من مصنفات أسامة بن منقذ كتاب البديع في نقد الشعر^(٢). وهو يشتمل على خمسة وسعين باباً ذكر فيه كثيراً من المحسنات البديعية.

مركز توثيق التراث الحضاري والحضاري



وفي القرن السابع الهجري نلتقي بسبعة علماء أولى كل واحد منهم البديع وفنونه فيها كتب عناية خاصة. وفيما يلي نبذة عن كل واحد من هؤلاء العلماء على حسب ظهورهم في عصرهم:

١ - الرازي:

هو فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ للهجرة، له

(١) انظر ترجمة أسامة بن منقذ في معجم الأدباء لياقوت ج : ٥ ص : ١٨٨.

(٢) حقق هذا الكتاب الدكتور أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد.

مصنفات كثيرة في تفسير القرآن الكريم، والفقه، وعلم الكلام، والطب، والكيمياء، وكان يجيد العربية، ويميل إلى مذهب الأشاعرة.

وهو يمتاز في تأليفه بدقة التفكير وقوة المنطق والقدرة على تشعيب المسائل وحصر أقسامها حصراً يحيط بها إحاطة تامة. وبهذه الطريقة اتجه في التأليف إلى البلاغة باعتبارها مدار الإعجاز في القرآن، فألف فيها كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز».

فالكاتب كما يفهم من عنوانه يتجه نحو الاختصار والإجمال، وقد أعلن في مقدمته أنه يهدف من وراء تأليفه إلى تنظيم ما صنفه عبد القاهر في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، وذلك لما لاحظته فيهما من إهمال رعاية ترتيب الأصول والأبواب، ومن الإطناب في الكلام.

وعلى هذا فالكاتب محاولة من جانب الرازي قصد بها تنظيم وتبويب كل ما كتبه عبد القاهر في ضرورة تنضبط فيها القواعد البلاغية وتنحصر فيها فروعها وأقسامها *فصل في ترتيب*

وبالإضافة إلى ذلك سرد الرازي في كتابه طائفة من فنون البديع، وهذه قد استمدتها من كتاب «حداائق السحر في دقائق الشعر» للوطواط الذي سبقت الإشارة إليه. والرازي ينقل عنه الأمثلة العربية مع الفنون البديعية التي تمثلها، وكذلك مصطلحاتها الخاصة.

وما نقله عن الوطواط نجيب الخط نحو قوله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾، كما نقل عنه ما سماه «المصحف»، وهو كلمات إن تغير نقطها كانت قدحاً وهجاء بعد أن كانت مدحاً وثناءً. كذلك عرض لما سماه ابن المعتز باسم «الاعتات»، وهو لزوم ما لا يلزم في قوافي الشعر وطرده في السجع.

وصور ما يحدث من حسن بسبب ائتلاف كلمتين، وعقد لذلك أربعة فصول، تحدث في أولها عن التجنيس موضعاً أقسامه، وقد نقلها عن الوطواط، ونقل عنه في الفصل الثاني حديثه عن الاشتقاق وقد فصله عن الجناس مع أنه ضرب منه مثل: «فأقم وجهك للدين القيم»، وقصر الفصل الثالث على «رد العجز على الصدر» واحتذى فيه وفي تقسيماته صنيع الوطواط، حتى في ضرب الأمثلة. أما الفصل الرابع فخص به ما سماه الوطواط، «بالمقلوب»، وهو ما يقرأ طرداً وعكساً، مثل:

لبق أقبل فيه هيف كل ما أملك إن غنى هب
فهذا البيت كل كلمة منه بانضمامها إلى أختها تجانسها في القلب.

ومثل: ليل أضاء هلاله أن يضيء بكوكب
فكل كلمة من هذا البيت (أضاء ويضيء) تقرأ مستوية ومقلوبة. وانتقل الرازي إلى ما يحدث من حسن بسبب ائتلاف الكلمات، وردّ إلى هذا الجانب السجع، ثم نقل ما سماه الوطواط بالمزدوج، وهو ضرب من التعقيد في السجعتين، إذ يجمع داخل كل سجعة بين كلمتين متشابهتي الوزن والروي مثل «من جد وكد في البداية عز ويز في النهاية».

وإلى هذا الجانب ردّ أيضاً ما سماه الوطواط باسم الترصيع، وهو عنده أن تتقابل السجعتان أو يتقابل شطرا البيت تقابلاً تاماً بحيث يكون لكل كلمة في سجعة أو شطر قرينتها المتفقة معها في الوزن والروي بالسجعة الثانية أو الشطر الثاني مثل قوله تعالى: ﴿إنا إنا إياهم ثم إن علينا حسابهم﴾، ومثل قول ابن النبية:

فحريق جرة سيفه للمعتدي ورحيق خمرة سبيه للمعتفي
فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه، فإن المقابلة فيه حاصلة

بين حريق ورحيق، وبين جرة ولجرة، وبين سيفه وسيفه، وبين المعتدي والمعتفي.

وفي القسم الذي عقده في كتابه للنظم نراه في الفصل الثالث منه يبين أقسام النظم، ويستهل حديثه عن ذلك بقول عبد القاهر: «إن الكلام إن لم يتعلق بعبء بعض لم يمتنع إلى فكر وروية كاستهلالات الجاحظ في كتبه، ومثل هذا الكلام لا تظهر فيه قوة الطبع وجودة القرينة، إنما يظهر ذلك في الكلام الذي يتعلق فيه الجمل بعضها ببعض، وتلتحم التحاماً شديداً وعند الرازي أن ذلك يجري على وجوه شتى، عد منها ثلاثة وعشرين وجهاً استمد معظمها هي وأمثلتها من كتاب الوطواط - حدائق السحر في دقائق الشعر -.

ومن هذه الوجوه المطابقة والمقابلة والمزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البحتري

إذا ما نهي الناهي فليجرح ^{أصلها} إلى الواشي فليجرحها المجرع^(١)
كذلك يذكر من هذه الوجوه البديعية الاعتراض، والالتفات، والافتباس، والتلميح. فالاعتراض هو عبارة عن جملة تعترض بين الكلامين وتفيد زيادة في معنى غرض المتكلم، ومن معجزه في القرآن: ﴿فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾.

والالتفات، كما فسره قدامة، هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيعترضه إما شك فيه، أو ظن أن راداً يرد عليه أو سائلاً يسأل عن سببه

(١) زواج بين نهي الناهي وإصاحتها إلى وشي الواشي الواقعين في الشرط والجزاء فترتب عليهما لجناح شيء.

فيلتفت إليه بعد فراغه منه، فلما أن يجلي الشك، أو يؤكد، أو يذكر
سيه. وعرفه ابن المعتز بأنه انصراف المتكلم عن الاخبار إلى المخاطبة،
كقوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين... إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

والاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من كتاب
الله خاصة، وهو على نوعين: نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه، كقول
الحريري: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى أنشد فأغرب»
فإن الحريري كفى به عن شدة القرب، وكذلك هو في الآية الكريمة.

ونوع يخرج به المقتبس عن معناه كقول ابن الرومي:

لئن أخطأت في مدحيك ما أخطأت في منعي
لقد أنزلت حاسباتي بواد غير ذي زرع..

فالشاعر كفى به عن الرجل الذي لا يزجي نفعه والمراد به في الآية
أرض مكة.

والتلميح هو أن يشير الناظم ~~على النوع~~ في بيت أو قرينة سجع إلى
قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل
سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسن التلميح وأبلغه ما حصل
به زيادة في المعنى المقصود، وسماه قوم التلميح بتقديم الميم، كان الناظم
أتى في بيته بنكتة زادته ملاحه، كقول ابن المعتز:

أترى الجيرة الذين تداخوا عند سير الحبيب وقت الزوال؟
علموا أنني مقيم وقلبي راحل فيهم أمام الجمال
مثل صاع^(١) العزيز في أرحل القوم ولا يعلمون ما في الرحال

(١) الصاع: مكيال مقداره ثمانية أرطال على رأي، وخمسة أرطال وثلاث رطل على رأي آخر.

هذا التلميح فيه إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام حين جعل الصاع في رحل أخيه، وإخوته لم يشعروا بذلك.

كذلك ذكر الرازي غير ما مرّ من الوجوه البديعية: إرسال المثليين، أي الجمع بينهما في بيت شعر، واللف والنشر، والتعديد، والموجه، أو التوجيه وهو أن يمدح الشاعر ممدوحه بصفة حميدة ثم يقرن بها صفة من جنسها تفيد معنى ثانياً، أو بعبارة أخرى أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره. وذلك كقول الشاعر في الحسن بن سهل عندما زوج ابته بوران الخليفة:

بارك الله في الحسن ولبوران في الختن^(١)

يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من؟

وبل ذلك من ألوان البديع التي ذكرها الرازي:

تجاهل العارف، والسؤال والمطلوب في بيت واحد، والإغراق في الصفة أو المبالغة، والجمع، والتفريق، والتقسيم، منفردة ومجمعة، واستشهد لهذا الوجه بأبيات للوطواط ساقها في كلامه، ثم التمجيد، وذكر فيه ما تمثل به الوطواط من قول بعض الشعراء:

أيا شمعاً يضيء بلا انطفاء ويا بدرأ يلوح بلا عحاق
فأنت البدر، ما معنى انتفاصي؟ وأنت الشمع، ما سبب احتراقي؟
وأخيراً يذكر حسن التعليل مع نفس المثال الذي تمثل به الوطواط.

وإجمالاً ذكر الرازي في مقدمة كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» أنه يحاول فيه اختصار كتابي عبد القاهر «دلائل الإعجاز» و«أسرار

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ، وقيل: أب المرأة.

البلاغة، وجمع ما تنائر فيها من القواعد البلاغية وتنظيمها وحصر فروعها وأقسامها.

ولكنه في محاولته لم يقتصر على ذلك، وإنما نراه يُلخص أيضاً بديعيات الوطواط وينثر ما أخذه منها في ثنايا فصول كتابه على نحو أدى إلى نوع من الخلط بين مباحث علم البديع، ومباحث علمي المعاني والبديع.

وما دما نتابع نشأة البديع وتطوره في عصوره المختلفة، فإن تحليل عمل الرازي في كتابه ونقده والحكم عليه يخرج عن دائرة ما نبغيه منه. وما نبغيه هو معرفة قدر المساهمة التي أسهم بها في خدمة علم البديع وتطويره، وهذه المساهمة، كما رأينا، ليس فيها جديد بحسب للرازي، وكل ما له أنه استخدم في كتابه بعض فنون البديع المعروفة، وكان مرجعه الأول فيها كتاب «حدائق السحر في دقائق الشعر» للوطواط.

مركز تحقيق التراث - مركز محمد بن سعود

٢ - السكاكي :

هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفى على الراجح سنة ٦٢٦ من الهجرة. ويقال إنه بدأ يشتغل بالعلم ويتفرغ له وهو في نحو الثلاثين من عمره، ولهذا أكب على علوم الفلسفة والمنطق والفقه وأصوله واللغة والبلاغة يدرسها حتى أتقنها.

وللسكاكي مصنفات كثيرة أهمها كتاب «مفتاح العلوم» الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية: قصر القسم الأول منها على علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق بأنواعه، كما جعل القسم الثاني منه لعلم النحو أما القسم الثالث فخصص به علم المعاني وعلم البيان، وملحقاتها من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

ولما كانت علوم البلاغة تحتاج إلى علوم المنطق والعروض والقافية فقد أفرّد لكل منها مبحثاً خاصاً وحيزاً في كتابه. وبذلك اشتمل «المفتاح» على علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض والقافية والمحسنات البديعية.

وشهرة السكاكي ترجع في الواقع إلى القسم الثالث من كتاب المفتاح، وهو القسم الخاص بعلم المعاني وعلم البيان وملحقاتهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية.

ومصدر هذه الشهرة أنه أعطى لأصول العلوم التي أفرّد لها القسم الثالث من كتابه الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده يتدارسونها ويشرحونها مراراً.

وقد كان ما انتهى إليه في ذلك وليد اكتساب ومجهود ذاتي. وتفصيل ذلك أنه استطاع أن يخرج من أبحاثه على أعمال رجال البلاغة المتقدمين عليه ملخص لما نشره في كتبه من آراء، وأضاف إليها ما عن له شخصياً من أفكار، ثم صاغ ذلك كله صياغة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتحديد والتقسيم والتفريع والتشعيب.

ولعل عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وفخر الدين الرازي هم أكثر من أفاد منهم السكاكي في عمله هذا.

والآن ماذا عن البديع عند السكاكي ومجوده فيه؟ لقد ذكرنا آنفاً أنه ألحق البديع في القسم الثالث من كتابه المفتاح بعلمي المعاني والبيان. ومعنى ذلك أنه لم يكن ينظر إليه كعلم مستقل قائم بذاته، وإلا لكان عليه أن يعامله معاملة علمي المعاني والبيان، وأن يعطيه من العناية ما أعطاه لها.

ومع ذلك فلعله كان أول من نظر في المحسنات البديعية وقسمها إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية، وهذا أمر يحسب بطبيعة الحال للسكاكي لأن من بحثوا قبله في المحسنات البديعية كانوا يوردونها مختلطاً بعضها ببعض، وقلما حاول أحدهم أن يفرق بين المعنوي واللفظي منها، كما فعل هو.

وشيء آخر أن السكاكي لم يأت في كتابه المفتاح على كل المحسنات البديعية التي كانت معروفة إلى عصره، وإنما اقتصر منها على ستة وعشرين نوعاً، لعلها كانت في نظره أهم من غيرها أثراً في تحسين الكلام لفظاً ومعنى، كما أنه لم يزد على المحسنات الجديدة من عنده.

والمحسنات البديعية المعنوية التي أثارها على غيرها ووقف عندها في كتابه تبلغ عشرين نوعاً، هي: **الطباق**، والمقابلة، ومراعاة النظير، والمزاوجة، والمشاكلة، والإيحاء، والنشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، وتأكيذ المدح، **تقديم الممدوح**، والتوجيه، والاعتراض، والالتفات، والاستبصار الذي سماه الفخر الرازي الموجه، وسوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ، وتقليل اللفظ ولا تقليله مما يدخل في بعض صور الإيجاز والإطناب.

أما المحسنات البديعية اللفظية التي أوردتها فهي: الجناس، ورد العجز على الصدر، والسجع، والقلب، والاشتقاق، والترصيع.

وكل هذه الفنون البديعية مستمدة بأمثلتها من الفخر الرازي، وقد عقب بعد سردها بقوله: «ويورد الأصحاب هنا أنواعاً مثل كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة، أو البعض منقوطة والبعض غير منقوطة بالسوية، فلك أن تستخرج من هذا القليل ما شئت، وتلقب من ذلك بما أحببت».

ولعل في هذا القول ما يعزز رأينا في سبب اقتصار السكاكي على ما ساقه من المحسنات البديعية، وإثارها على غيرها، ذلك لأن الأمر كله مرجعه إلى الذوق والقدرة على التمييز أو التفضيل بين محسن بديعي وآخر من حيث الأثر الذي يحدثه في الارتفاع بالقول لفظاً ومعنى.

٣ - ضياء الدين بن الأثير: ٥٨٨ - ٦٣٧ هـ.

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري نسبة إلى جزيرة ولد فيها، تدعى جزيرة ابن عمر بالموصل.

وضياء الدين بن الأثير هذا هو شقيق مجد الدين بن الأثير، وعز الدين بن الأثير. وأبناء الأثير الثلاثة هؤلاء اشتهر كل منهم بفن من الفنون، فمجد الدين المتوفى سنة ٦٠٦ للهجرة من رجال الحديث المشهورين وله مؤلفات مفيدة منها: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠ للهجرة من كبار المؤرخين، وهو صاحب «الكامل في التاريخ» وهو أشهر كتب التاريخ المتداولة بين أيدينا، ومن أوثق المصادر التاريخية الإسلامية وأصحها، بدأ فيه بالخلق وانتهى إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ. والكتاب كله مرتب على السنين، وقد جمع فيه خلاصة الكتب التاريخية التي تقدمته، واقتبس فيه تاريخ الطبري كله تقريباً بعد حذف الأسانيد وتبعه في ترتيبه، وجعله ١٢ جزءاً كبيراً. ولعز الدين بن الأثير أيضاً كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وهو معجم أبجدي في تراجم الصحابة، في خمسة مجلدات كبيرة.

أما ضياء الدين بن الأثير الأخ الأصغر فهو لغوي أديب، ومؤلفاته كلها في الأدب والبيان وصناعة الكلام، وأهم مؤلفاته كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

وكتاب «المثل السائر» الذي هو موضوع بحثنا هنا مقسم إلى مقدمة

في علم البيان، وإلى مقالتين: الأولى في الصناعة اللفظية، والثانية في الصناعة المعنوية.

ويقول علماء البيان: «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأخصام» فقد أتى فيه بما لم يسبقه أحد إليه، ولعل هذا هو سبب زهوه وإعجابه بنفسه البادي في ثنايا كتابه.

وقد ألف عز الدين بن أبي الحديد صاحب شرح نهج البلاغة والمتوفى سنة ٦٥٥ للهجرة كتاباً سماه «الفلك الدائر على المثل السائر» يعتف فيه رضاء الدين بن الأثير على غروره وتهجمه على من سبقوه، ويصحح بعض آرائه، وينقض اعتراضاته على الزمخشري والغزالي وأبي علي الفارسي وابن سينا والقارابي وغيرهم ممن تناولهم بالنقد والتجريح في كتابه.

والآن وبعد هذه الترجمة الموجزة لابن الأثير نتقل إلى كتابه «المثل السائر» محاولين التعرف على ما أورد فيه من أنواع البديع.

وأول ما نلاحظه بهذا الخصوص أنه لم ينظر إلى المحسنات البديعية كعلم قائم بذاته كما فعلت مدرسة عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي ومن لف لفهم، وبالتالي لم يدرسها دراسة منفصلة عن البيان، وإنما نراه يتوسع في مفهوم علم البيان بحيث يشمل مباحث علم المعاني والبديع، مجارياً في ذلك مدرسة الجاحظ التي تعتبر كلمة البيان مرادفة لكلمة البلاغة.

من أجل ذلك نراه في مقالته^(١) الأولى الخاصة بالصناعة اللفظية

(١) كتاب المثل السائر ص: ٥٦ - ١٢٢.

يتكلم عن المحسنات البديعية اللفظية، وفي مقالته الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية يعرض للمحسنات البديعية المعنوية.

وعنده أن المحسنات البديعية اللفظية هي صناعة تأليف الألفاظ، ولهذا ساق منها في مقالته الأولى ثمانية أنواع، عقد لكل نوع منها فصلاً مستقلاً، وهذه الأنواع هي: السجع، والتصريع، والتجنيس، والترصيع، ولزوم ما لا يلزم، والموازنة، واختلاف صيغ الألفاظ، وتكرير الحروف.

وهو في دراسته لهذه الأنواع لم يقف عند حد تعريفها وبيان أقسامها وتفرعاتها، وإنما هو أيضاً يمد دراسته لها إلى بيان ما يختص فيها بالكلام المنشور، وما يختص بالكلام المنظوم، وما يعم القسمين جميعاً.

فالسجع عنده يختص بالكلام المنشور، وعرفه بأنه تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد وهو يعطى القول فيه على أساس أنه قد أصبح سمة من سمات الرسائل، كما يسمى فواصل^(١) القرآن المتحدة في الروي أسجاعاً، متخذاً من ذلك طيلة كل أن السجع أهل درجات الكلام.

والترصيع يختص بالكلام المنظوم، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الشطر الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الشطر الثاني في الوزن والقافية. وهذا لا يوجد في كلام الله تعالى لما هو عليه من زيادة التكلف، وإنما هو يوجد في الشعر كقول بعضهم:

فمكارم أوليتها متبرعا وجرائم ألغيتها متورعا
فمكارم بإزاء جرائم، وأوليتها بإزاء ألغيتها، ومتبرعا بإزاء متورعا،

(١) يعني بالفواصل حروف المقاطع.

وهو داخل عنده في باب السجع لأنه في الكلام المنظوم كالسجع في الكلام
المشور.

أما أنواع المحسنات البديعية اللفظية الأخرى، وهي: التجنيس،
والتصریح، ولزوم ما لا يلزم، والموازنة، واختلاف صيغ الألفاظ، وتكرير
الحروف؛ فإنها عند ابن الأثير نعم القسمين جميعاً.

وفي مقالته^(١) الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية تكلم ابن الأثير
بإسهاب عن المعاني. وقد دعاه ذلك إلى الحديث عن بعض المحسنات
البديعية المعنوية، وهذه المحسنات هي: التجريد، والالتفات، والتفسير
بعد الإبهام، والاستدراج، والاعتراض، والأحاجي أو الألفاظ، والتناسب
بين المعاني ويقسمه أقساماً ثلاثة: الطباق، وصحة التقسيم، وترتيب
التفسير الذي أراد به ما يشمل اللفظ والنشر. وقد توسع في معنى الطباق
فجعله يشمل المقابلة، والمشاكلة، والمؤازرة بين المعاني.

وتكلم عن الاقتصاد والتفريط والإحطاط، وهو يعني بالاقتصاد الحد
الأوسط، وبالتفريط التقصير، والإحطاط المبالغة، وتحدث عن
الاشتقاق وعده نوعاً من الجناس، كما تحدث عن التضمين، وقسمه
قسمين: الاقتباس من القرآن الكريم وأحاديث الرسول، وهو يكسب
الكلام حسناً وطلاوة، وقسم آخر يجري في الشعر كما يجري في النثر، إذ
يعلق معنى البيت بما بعده، أو يعلق فصل من الكلام المشور بما يتلو، وفي
رأيه أن ذلك مقبول ولا ينبغي أن يعاب على نحو ما عابه بعض النقاد في
الشعر.

وأخيراً يتكلم عن الإحصاء ويقول إن أبا هلال سماه التوشيح،

(١) كتاب المثل السائر ص: ١٢٢ - ٣١٠.

وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية أرصدها له، أي أعدها في نفسه، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته. وعنده أن ذلك من محمود الصنعة، لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض.

أما التوضيح عند ضياء الدين فمعناه أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفین، فإذا وقف من البيت على القافية الأولى أي الداخلية كان شعراً مستقيماً من بحر وقافية، وإذا أضاف إلى ذلك ما يبنى عليه شعره من القافية الأخرى، كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر وقافية أخرى، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح.

فمن ذلك قول بعضهم:

اسلم ودمت على الحوادث مارساً ركناً ثبيراً أو هضاب حراء^(١)
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور وفز بطول بقاء
فهذان البيتان من بحر الكامل التام والقافية هي الهزجة، ولكن إذا حذفنا من البيت الأول «أو هضاب حراء» ومن الثاني «وفز بطول بقاء» ظل البيتان قائمين وتحولاً من بحر الكامل التام إلى بحر آخر هو مجزوء الكامل، وأصبحت صورتها هكذا:

اسلم ودمت على الحوادث مارساً ركناً ثبيراً
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور

ويعقب ضياء الدين على هذا النوع بأنه لا يستعمل إلا متكلفاً عند تعاطي التمكن من صناعة النظم، وأن حسنه منوط بما فيه من الصناعة لا بما فيه من البراعة.

(١) ثبير: الجبل المعروف عند مكة. حراء جبل بمكة فيه غار، وكان الرسول، قبل أن يوحى إليه، يأتيه ويخلو بغاره فيشحن فيه، أي يتعبده لله.

وقد أشار صاحب المثل السائر أخيراً إلى اختلاف البلاغيين في بعض مصطلحات الفنون البديعية والقائها، بل منهم من يضع لفن واحد من البديع اسمين اعتقاداً منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان، وليس الأمر كذلك بل هما نوع واحد، وذلك كما فعل «الغانمي» حينما ذكر «التبليغ» و«الإشباع» على أنها نوعان من البديع مختلفان، مع أنها من حيث المضمون سواء، لا فرق بينهما بحال، كما ذكر أن أبا هلال العسكري قد سمى هذين النوعين بعينها «الإبغال»، وهو أن يستوفي الشاعر معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، أي قافيته، ثم يأتي بالمقطع فيزيد فيه معنى آخر، كقول امرئ القيس:

كان عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
فإنه أتى بالتشبيه تماماً قبل القافية وهو «كان عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع» فلما احتاج إلى القافية وجاء بها بلغ الأمد الأقصى في المبالغة.

ولا يفوت ضياء الدين بركات أن يشير إلى ولع بعض الكتاب والشعراء بالمحسنات البديعية وتفتنهم في اختراع صور منها خرجت بالكلام عن موضوع علم البيان.

ومن فعل ذلك الحريري في رسائل تضمنتها بعض مقاماته، ففي رسالة نراه يبينها على كلمة مهمة وكلمة معجمة، كقوله: «الكرم، ثبت الله جيش سعودك، يزين، واللؤم، غص الدهر جفن حسودك، يشين، والأروع يشيب، والمعور^(١) يخيب».

وفي رسالة ثانية يبينها على عبارات تقرأ طرداً ورداً، أي لا تستحيل

(١) المعور: كل من بدا فيه موضع خلل للضرب.

بالانعكاس، كقوله: «لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل».

وقوله:

أسل جناب غاشم مشاغب إن جلسا

وفي رسالة ثالثة يبينها على صورة تجعلها تقرأ من أولها بوجه، ومن آخرها بوجه آخر، كقوله: 'والإنسان صنيعه الإحسان، وكسب الشكر استثمار السعادة، وفصاحة المنطق سحر الألباب، وزينة الرعاية مقت السعاة، وتناسي الحقوق ينشئ العفوق'.

وفي رسالة رابعة ينشئها على أساس حرف غير منقوط، وآخر منقوط كقوله:

سَيد قلب مبوق مَيز فطن مغرب عزوف صيوف
مخلف متلف أغر فريد نابه فاضل زكي أنوف

ويعلق ضياء الدين بن الأثير على مثل هذه الخيل البديعية بقوله: «كل هذا وإن تضمن حقيقة علمية فصاحفة كونه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة، لأن الفصاحة هي ظهور الألفاظ مع حسنها، وكذلك البلاغة، فإنها الانتهاء في محاسن الألفاظ والمعاني... وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريري في رسائله لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة، وإنما يأتي ومعانيه غثة باردة... وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة في الألفاظ والمعاني، فإذا خرج عنه شيء من هذه الأوضاع المشار إليها لا يكون معدوداً منه ولا داخلاً في بابيه. ولو كان ذلك مما يوصف بحسن في ألفاظه ومعانيه لورد في كتاب الله عز وجل الذي هو معدن الفصاحة والبلاغة، أو ورد في كلام العرب الفصحاء، ولم نره في شيء من أشعارهم وخطبهم»^(١).

(١) المثل السائر ص: ٣٠٨.

وأخيراً يصدر حكمه على هذا النوع من الكلام بقوله : «وكل ذلك وإن كان له معنى يفهم إلا أنه ضرب من الهذيان، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبلة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة»^(١).

وكأن بصاحب المثل السائر يرمي من وراء هذا التعليق إلى التنبيه على خطورة الإسراف في اختراع الحيل البديعية التي تفسد الأدب والنوق معاً، وتعطي الغلبة في صناعة القول للصنعة على الطبع.

ولعل فيما أوردناه عن ضياء الدين بن الأثير ما يعطي صورة عن فنون البديع التي عالجها كجزء من علم البيان لا كعلم قائم بذاته كما فعلت مدرسة عبد القاهر والزنجشري والسكاكي ومن تأثر بهم.

٤ - التيفاشي المغربي :

هو أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى بمصر سنة ٦٥١ للهجرة، وله مؤلف في علم البديع أحصى فيه سبعين محسناً من المحسنات البديعية.

مركز تحقيق تكوير علوم إيسدي

٥ - زكي الدين بن أبي الأصبح المصري :

المتوفى سنة ٦٥٤ للهجرة، وله ثلاثة كتب هي : كتاب الأمثال^(٢) وكتاب تحرير التجبير، وكتاب بديع القرآن.

أما كتاب «الأمثال» فيتضمن ما جمعه ابن أبي الأصبح من أمثال أبي تمام، وأمثال أبي الطيب المتنبي، وما وُلده أبو الطيب من أمثال أبي تمام،

(١) نفس المرجع. والشعبلة والشعونة : خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين.

(٢) انظر بخصوص هذا الكتاب غزاة الأدب لابن حجة الحموي ص ٨٣.

وصدر الجميع بما وقع في الكتاب العزيز من الأمثال، وزاد على ذلك أمثال دواوين الإسلام والحماسة، وأمثال أبي نواس، وختم الجميع بأمثال العامة، وبما سار من أمثال الطغرائي في لامية العجم كقوله:

حب السلامة يثني هزم صاحبه عن المعالي ويفري المرء بالكسل
أحلل النفس بالآمال أرقبها.. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!
ولمّا رجل الدنيا وواحد.. من لا يعمل في الدنيا على رجل

وأما كتاب «تحرير التحيين» فقد أحصى فيه من المحسنات البديعية مائة وعشرين نوعاً، بدأها بمحسنات ابن المعتز وقدامة، وثني بما جمعه من كتب البلاغيين بعدهما، فبلغ ذلك كله اثنين وتسعين محسناً، ثم أضاف إلى هذا العدد ثلاثين محسناً جديداً، منها عشرون من زياداته هو، والباقي إما مسبوق إليه أو متداخل عليه.

وفي كتابه الثالث «بديع القرآن» عرض ابن أبي الأصبع لما في القرآن من محسنات بديعية بلغت مائة وعشرين وثمانية، كما يقول في مقدمة الكتاب.

وبما يلاحظ عليه أنه في معالجته لفنون البديع قد أدخل بعض مباحث المعاني في البديع، وخاصة صور الإطناب، كال تكرار والتفصيل، والتدليل، والاستقصاء، والإيضاح، والبسط، والإيجاز. ومعنى ذلك أن البديع عنده، وربما قبله، أخذ يشتمل لا على الصور البيانية فحسب، كما كان الشأن منذ ابن المعتز، وإنما أخذ يشتمل أيضاً على كثير من أساليب علم المعاني.

٦ - علي بن عثمان الأربلي:

المتوفى سنة ٦٧٠ من الهجرة كان معاصراً لابن أبي الأصبع

المصري، وقد نظم قصيدة مدح من ستة وثلاثين بيتاً في كل بيت منها نوع من أنواع البديع التي كانت شائعة في عصره. وقد وضع يزاء كل بيت اسم المحسن البديعي الذي تضمنه.

وهذه القصيدة تعدّ المحاولة الأولى في الاتجاه الذي أخذ بعد ذلك يشيع بين الشعراء بدخولهم في ميدان البديع ينظمون فنونه في قصائد عرفت فيما بعد باسم «البديعيات».

وفيما يلي نموذج من بديعية الأربلي:

بعض هذا الدلال والإدلال حال بالفجر والتجنب حالي
(الجلس اللفظي)

طلب دونه منزل الثريا وهو دونه زوال الجبال
(الغنى)

وغرام أقله يدهل الأعداء في عيها عن الأثبال
(الباطنة)

ما جدد بعض فطره بملكه الفل فل الذي يعود بمال
(مرآتية كبرى من طراز المصنوع)

ليس فيه عيب يمدده الحساد إلا المطاه قبل الزوال
(الاستثناء)^(١)

٧ - ابن مالك:

هو بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك الطائي الأندلسي أصلاً الدمشقي داراً المتوفى سنة ٦٨٦ من الهجرة. وأبوه الشيخ جمال الدين بن مالك العالم النحوي صاحب الألفية المشهورة في النحو.

وبدر الدين نحوي كآبيه، وله مؤلفات في النحو والبلاغة، وكتابه

(١) انظر القصيدة وترجمة الأربلي في فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ج ٢ ص: ١١٨.

«المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع» هو تلخيص لكتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي. وقد جرد كتابه من تعقيدات السكاكي المنطقية والكلامية والفلسفية التي قلّم بها لأقسام المفتاح وفصوله، كما أدخل عليه بعض تعديلات، أهمها نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل البيان إلى فاتحة مختصرة.

وقد جرى بدر الدين على رأي السكاكي في أن علمي المعاني والبيان يرجعان إلى البلاغة، وأن المحسنات البديعية ترجع إلى الفصاحة، كما اعترف بأن هذه المحسنات تنويع لعلمي المعاني والبديع، ولكنه مع ذلك جعلها علماً مستقلاً بذاته سماه «علم البديع»، وبذلك مهد الطريق أمام البلاغة لتصبح متضمنة علوماً ثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

ولعل أهم شيء يميز به المختصر على الأصل هو توسع بدر الدين في المحسنات البديعية، فقد ذكر عنها أربعة وخمسين نوعاً، على حين ذكر السكاكي منها ستة وعشرين فقط. ولا ريب أن بدر الدين كان متأثراً في ذلك برجال البديع في عصره، فقد توسعوا في إحصاء أنواعه حتى تجاوزوا بها المائة، بل إن منهم من بلغ بها مائة وخمسة وعشرين نوعاً.

وقد ردّ بدر الدين المحسنات البديعية التي عرض لها في كتابه إلى الفصاحة اللفظية والمعنوية مجارياً في ذلك السكاكي وغيره من أصحاب البديع المتقلمين عليه.

ولكنه انفرد عنهم جميعاً بجعل المحسنات البديعية المعنوية قسمين: قسماً يعود إلى الإفهام والتبيين، مثل: المذهب الكلامي، والتميم، والتقسيم، والاحتراض، والتذليل، والاعتراض، والتجريد، والمبالغة، وقسماً يعود إلى التزيين والتحسين، مثل: اللف والنشر، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق.

ذلك هو مدى التطور الذي تم لعلم البديع في القرن السابع الهجري على أيدي سبعة من أشهر رجاله هم: فخر الدين الرازي، والسكاكي، وضياء الدين ابن الأثير، والتيفاشي المغربي، وابن أبي الأصبع المصري، وعلي بن عثمان الأربلي، وبدر الدين بن مالك.

وإذا انتقلنا إلى القرن الثامن الهجري فإننا نلتقي بستة علماء كان لهم اهتمام بالبديع وفنونه، ومن هؤلاء من عرض للبديع في ثنايا درسه للبيان العربي بمفهومه العام، ومنهم من قصد قصداً إلى دراسة البديع لذاته في عمل مستقل.

وفيما يلي نبذة عن كل عالم من أولئك العلماء توضح الجهد الذي بذله والمساهمة التي أسهم بها في دراسة علم البديع.

١ - يحيى بن حمزة:

هو يحيى بن حمزة العلوي البجلي المتوفى سنة ٣٤٩ للهجرة، وقد اشتهر بعلوم النحو والبلاغة وأصول الفقه، وله فيها مصنفات مختلفة، يهمنها منها كتابه المسمى «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» والذي يقع في ثلاثة أجزاء.

ففي مقدمة هذا الكتاب يتقنا يحيى بن حمزة على حقيقتين: الأولى أن من ألفوا في البلاغة إما مطيل عمل وإما موجز غفل، والحقيقة الثانية أنه لم يطلع إلا على أربعة كتب مما كتبه البلاغيون قبله، وهذه هي: «المثل السائر» لابن الأثير، و«كتاب التبيان» في علم البيان» لعبد الواحد الزمלקاني الدمشقي، و«كتاب» «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» للفخر الرازي، و«كتاب» «المصباح في المعاني والبيان والبديع» لبدر الدين بن مالك.

كذلك يعطي في المقدمة السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه، ومفاده

أنه شرع يقرأ على بعض طلابه كتاب الكشاف للزمخشري فطلبوا منه أن يؤلف لهم كتاباً في البلاغة يسترشدون به في فهم الكشاف المؤسس على البلاغة وقواعدها، فلجأهم إلى طلبهم وألف لهم هذا الكتاب.

والكتاب بحث في قواعد البلاغة سواء ما اتصل منها بالمعاني أو البيان أو البديع الذي يعنينا هنا في المحل الأول.

وكل ما ذكره يحيى بن علي في كتابه عن علم البديع قد استوحاه في الواقع من كتاب «المصباح في المعاني والبيان والبديع» لبدر الدين بن مالك.

فهو يجري مع بدر الدين في تقسيم علم البديع إلى ما يتعلق بالفصاحة اللفظية، وما يتعلق بالفصاحة المعنوية. وفي بحثه للفصاحة اللفظية ساق يحيى بن علي عشرين فصلاً لفظياً، منها الجناس، والترصيع، والتوشيح، والالغاز، وقد عدّ ذلك الطباق مع أنه من محسنات المعنى لا اللفظ.

وفي حديثه عن الفصاحة المعنوية أورد خمسة وثلاثين فصلاً معنوياً، منها التشبيه، والسرقات الشعرية مستوحياً ما قاله فيها من كلام ابن الأثير. ثم ختم حديثه عن البديع بتحديد معناه وبيان أقسامه إجمالاً. تلك خلاصة موجزة لما جاء في كتاب يحيى بن علي عن علم البديع.

٢ - التنوخي:

صاحب كتاب الأقصى القريب في علم البيان.

هو محمد بن عمرو التنوخي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة، كان معاصراً ليحيى بن علي وتوفياً في سنة واحدة.

وفي عنوان الكتاب ما ينبيء عن منحنى التنوخي ومفهومه للبيان أو

البلاغة. فهو لا يجري على طريقة عبد القادر والزحشري والسكاكي، تلك الطريقة التي تقوم على أساس التمييز والفصل بين علوم البلاغة الثلاثة المعروفة، وإنما نراه يتبع طريقة ابن الأثير التي تعد البلاغة وحدة عضوية مترابطة.

ثم هو بعد ذلك يخالف ابن الأثير في طريقة البحث والمعالجة، فإذا كان ابن الأثير يعتمد في بحثه على الذوق الأدبي، فإن التنوخي يعتمد على النحو والمنطق.

على أن حظ البديع من كتاب التنوخي ضئيل، فهو يتكلم فيه عن الاعتراض، وتأكيذ المدح بما يشبه النظم الذي يعده صورة من صور الكناية، كما يتكلم عن الاشتقاق، والتكرار، والتقسيم، والمبالغة، والتضمين، والاستدراج، والسجع، ولزوم ما لا يلزم، والجناس الذي أطلال فيه. وكذلك ذكر أنواعاً من البديع يمكن أن ترد إلى البيان. مثل التوشيح أو الموشحات.

تلك هي فنون البديع التي شاقها التنوخي في كتابه، وهي من ناحية قليلة العدد، ومن ناحية أخرى جاءت مختلفة. في الكتاب على حسب مقتضيات البحث، فلا فصل ولا تفريق بين اللفظي والمعنوي منها، كما فعل بعض البلاغيين المتقدمين عليه.

٣- ابن قيم الجوزية^(١):

هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ للهجرة.

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٤ ص: ٢١.

وفي النجوم الزاهرة ج ٤ ص: ٢٤٩.

كان بارعاً في عدة علوم، ما بين تفسير وفقه، ولغة ونحو، وحديث وأصول. ولزم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، وغلب عليه حبه له حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل يتنصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه. واعتقل مع ابن تيمية في قلعة دمشق، فلما مات ابن تيمية أفرج عنه. وكان مغرمًا بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلًا، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.

وقد صنف وألف كتباً كثيرة منها: «كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان»، وهو يحتوي على مقدمة وقسمين. وفي المقدمة إشادة بعلوم البيان، لأن العلم بها في نظره يعين على معرفة إعجاز القرآن. وفي المقدمة يتحدث أيضاً عن بعض مباحث البيان من حقيقة ومجاز واستعارة وتمثيل.

وفي القسم الأول من الكتاب يتحدث عن الكناية، ثم يتطرق إلى محسنات البديع المعنوية فيتمتع بها من نحو ممانين نوعاً، وفي القسم الثاني الذي عقده للفصاحة يتكلم عن المحسنات البديعية اللفظية ويذكر منها أربعة وعشرين نوعاً.

تلك هي مباحث الكتاب بإيجاز، وهي في الواقع ترديد لما اهتدى إليه المتقدمون في ميدان البيان أو البديع، وليس لابن الجوزية فيها إلا فضل الجمع، وإن كان جمعاً ينقصه دقة الترتيب والتبويب.

٤ - صفى الدين الحلبي^(١):

هو الشاعر المشهور صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الطائي الحلبي

(١) انظر ترجمته في الدرر الكلمنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج ٢ رقم:

٢٤٣١.

المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة. أحب الأدب ومهر في فنون الشعر كلها، وتعلم المعاني والبيان، وصنّف فيها، واحترف التجارة، فكان يرحل إلى الشام ومصر وماردين وغيرها في التجارة، ثم يرجع إلى بلاده، وفي غضون ذلك يمدح الملوك والأعيان.

وديان صفي الدين الحلي مشهور يشتمل على فنون كثيرة من الشعر، وله في مدح الرسول قصيدة طويلة تبلغ مائة وخمسة وأربعين بيتاً من بحر البسيط، وهي على غرار بردة البوصيري المشهورة موضوعاً ووزناً وقافية.

وهذه القصيدة هي المعروفة ببديعية صفي الدين والتي مطلعها:

إن جئت مسلماً فسل عن جيرة العلم وافر السلام على عرب بلدي مسلم
وهذه البديعية تشتمل على خمسة وأربعين محسناً، لأن كل بيت فيها يتضمن محسناً من محسنات البديع. وقد قصر الأبيات الخمسة الأولى منها على الجناس الذي جعل في بعضها لفظاً شاعرياً نوعاً.

ومطلع بديعية الحلي المشار إليه آنفاً يشتمل من المحسنات على براعة الاستهلال أو حسن الابتداء كما يسميه ابن المعتز، ويعني به دلالة المطلع من البدء على موضوع القصيدة.

كذلك يشتمل المطلع على نوعين من الجناس بين «سلام وسلم» و«علم وسلم».

وقد سمي الحلي ببديعته «الكافية البديعية في المدائح النبوية» وألف عليها شرحاً سماه «التناجح الإلهية في شرح الكافية البديعية»، وفي مقدمة الشرح نبذة عمن سبقه إلى التأليف في البديع. ويقول ابن حجة الحموي

إن الحلّي «ذكر أنه جمع بديعيته من سبعين كتاباً»^(١). وهذه البديعية شرح آخر وضعه عبد الغني النابلسي وسمّاه «الجوهر السني في شرح بديعية الصفي».

ويلاحظ على بديعية الحلّي أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعي في كل بيت، اكتفاء بالتعريف به عن طريق المثال. ولعله أراد بذلك أن يسبغ على بديعيته صفة الوضوح والجمال الشعري، وأن يجنبها صفة التعقيد في النظم عند التزام تسمية النوع البديعي في البيت.

وإذا كانت قصيدة الأربلي السابقة الذكر هي المحاولة الأولى في القصائد البديعيات فإن بديعة صفي الدين الحلّي هي المحاولة الثانية في هذا الاتجاه.



٥ - ابن جابر الأندلسي^(٢):

هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الضرير المتوفى سنة ٧٨٠ للهجرة. قرأ القرآن والتفقه في الحديث على شيوخ عصره وكان شاعراً جيد النظم عالماً بالعربية، وذكر لسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة أن ابن جابر نظم فصيح ثعلب، وكفاية المتحفظ، وغير ذلك.

وقد رحل من الأندلس إلى مصر والشام واصطحب معه أبا جعفر الغرناطي، فكان ابن جابر ينظم الشعر والغرناطي يكتب.

ولابن جابر بديعية على قافية الميم من بحر البسيط سماها «الحلة

(١) انظر خزانة الأدب لثقي الدين ابن حجة الحموي ص: ٣٦٨.

(٢) ترجمته في الدرر الكلمة في أعيان المائة الثامنة ج ٣ ص: ٤٢٩.

وفي نكت الحميان للمصنفدي ص: ٢٤٤.

السيرا في مدح خير الوري، نظمها على طريقة بديعية صفاء الدين الحلبي وشرحها صاحبه أبو جعفر.

وبديعية ابن جابر تقع في مائة وسبعة وعشرين بيتاً، واستهلها بقوله:

بطيبة انزل وعم سيد الأمم وانثر له المدح وانثر أطيب الكلم

ويذكر أبو جعفر في مقدمة شرحه لهذه البديعية أن ابن جابر اتبع في سرد المحسنات البديعية الخطيب القزويني في كتابه التلخيص والإيضاح، وذلك يعني أنه قصر بديعته على المحسنات البديعية ولم يخلطها ببعض فنون البيان كما فعل غيره.

وقد التقى ابن جابر مع صفى الدين الحلبي في عدم الالتزام بتسمية النوع البديعي في البيت، ولكنه يختلف من جهة عدم الإكثار من المحسنات في قصيدته مكتفياً فيها بنحو ستين محسن، على حين تضمنت قصيدة الحلبي مائة وخمسة وأربعين محسنًا. ~~والقصيدة لبديعية ابن جابر يرى أنه جرى فيها~~ على طريقة بدر الدين بن مالك من حيث تقديم المحسنات اللفظية على المحسنات البديعية.

ويبدو أن المحاولات الثلاث أو البديعيات الثلاث التي عرضنا لها حتى الآن، وأعني بها بديعية كل من الأربلي، وصفى الدين الحلبي، وابن جابر الأندلسي قد لفتت أنظار بعض العلماء الشعراء فراحوا يتبارون في نظم بديعيات على غرارها يمدحون بها الرسول ويضمنونها من المحسنات البديعية ما قدروا عليه مما عرفوا منها، وكان تأثرهم بصفى الدين الحلبي أكثر من غيره.

ومن أشهر من اقتدى به من هؤلاء العلماء:

٦ - عز الدين الموصلبي^(١):

المتوفى سنة ٧٨٩ للهجرة.

هو عز الدين علي بن الحسين الموصلبي الشاعر المشهور، نزل دمشق وأقام بحلب مدة، وبرز في النظم، وجمع ديوان شعره في مجلد واحد.

وللموصلبي بديعية مشهورة مطلعها:

براعة تستهل الذم في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وهي قصيدة نبوية في مائة وخمسة وأربعين بيتاً، عارض بها بديعية المصفي الحلبي، وزاد عليه الالتزام بأن يودع كل بيت اسم النوع البديهي بطريق التورية أو الاستخدام. مثال ذلك كلمة «براعة تستهل» في مطلع بديعته السابق الذكر، فلما نشر إلى «براعة الاستهلال»، أحد المحسنات البديعية.

وكان بالموصلبي أن لا يكتفي أن يظهر تفوقه على صفي الدين الذي لم يلتزم بإدخال أسماء المحسنات البديعية في نسيج الأبيات اكتفاء بالتعريف بها بالأمثلة من ناحية، ويذكر اسمائها أمام الأبيات أو بحذائها من ناحية أخرى.

وقد علق ابن حجة الحموي على بديعية الموصلبي بقوله: وللشيخ عز الدين الموصلبي قصيدة بديعية التزم فيها بتسمية النوع البديهي وورى بها من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلبي، لأنه ما التزم في بديعته بحمل هذا العبء الثقيل... وربما رضي في الغالب بتسمية

(١) ترجمته في الدرر الكملة ج ٣ ص: ١١٢.

النوع ولم يعرب عن المسمى، ونثر شمل الألفاظ والمعاني لشدة ما عقد.
نظماً^(١).

ويقارن عبد الغني النابلسي بين الموصلي والحلي في مقدمة شرح
بديعته هو المسمى «نفحات الأزهار» بقوله: «ثم جاء بعد صفي الدين
الشيخ عز الدين الموصلي، فعارضه بقصيدة على منوال قصيدته، وذكر من
الأنواع ما ذكره، وزاد عليه بعض شيء يسير من اختراعاته معجياً بذكر
اسم النوع البديعي في الفاظ البيت مورياً به لثلا يحتاج إلى تعريف النوع
من خارج النظم، ولكنه تعسف ونكلف في غالب أبياته، وهجر موضع
الرقعة والانسجام، ثم شرحها شرحاً يبين فيه مقصده ومراده مع
الاختصار، ولم يشف غلة الأفكار».

هذا وللشيخ عز الدين الموصلي بديعية أخرى لامية على وزن قصيدة
كعب بن زهير التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليقظة متبول
منعشها لم يقد مكبول
وبعد فتلك نبذة تصور حال البديع في القرن الثامن، كما تصور
الجهود التي بذلها في سبيل تطويره ستة من علماء هذا العصر، ثلاثة منهم
عرضوا للبديع، في ثنايا كتبهم عن البيان العربي، أو عرضوا له على أنه
علم بلاغي مستقل عن علمي المعاني والبيان، وهؤلاء هم: يحيى بن
حمزة، والتتوخي، وابن قيم الجوزية. أما الثلاثة الآخرون فمن أصحاب
البديعيات، وهم: صفي الدين الحلي، وابن جابر الأندلسي، وعز الدين
الموصلي.

(١) انظر خزائن الأدب لابن حجة الحموي ص: ٢.

وإذا ما اجتزنا القرن الثامن إلى القرن التاسع الهجري وما بعده فإننا نرى أن الاتجاه الغالب في دراسة البديع يتمثل في نظم البديعيات التي تنحو منحى صفى الدين الحلي أو عز الدين الموصلي وتبارى مع هذا أو ذاك في منحاها. وأول هؤلاء المتبارين هو:

١ - ابن حجة الحموي^(١):

المتوفى سنة ٨٣٧ للهجرة.

هو تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي، كان إماماً عارفاً بفنون الأدب، متقدماً فيه طويل النفس في النظم والنثر. وله مصنفات كثيرة منها: بروق الغيث الذي انجم في شرح لامية العجم، وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، وثمرات الأوراق في المحاضرات، وخزانة الأدب، وديوان شعر بديع.

ولابن حجة الحموي بديعة مشهورة في مدح الرسول تبلغ مائة واثنتين وأربعين بيتاً، وقد استعملها بقوله:

لي في ابتداء مدحك يا هرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم
وقد حاول في نظمها كما ذكر في مقدمة شرحه لها أن يجمع بين الحسينين، أعني أن يقتدي بعز الدين الموصلي في تضمين ألفاظ البيت ما يشير إلى نوع المحسن البديعي الذي بناء عليه، وأن يقتدي بصفى الدين الحلي في رقة شعره وجمال نظمته وسلاسته.

وما من شك في أن بديعته أرق وأسلم في نظمها من بديعته عز الدين، ولكنه لم ينجح كل النجاح في التخلص مما عابه عليه من ثقل النظم والتكلف الشديد في بديعته.

(١) انظر ترجمته في «القصود اللامع» للمحافظ السخاوي، وكشف الظنون لحاجي خليفة.

وليس لابن حجة في بديعته فضل اختراع أو زيادة على من تقدموه من أصحاب البديع، وكل ما له من فضل أنه جمع فيها من أعمال السابقين مائة واثنين وأربعين نوعاً من المحسنات يختلط اللفظي فيها بالمعنوي من غير فصل أو تحديد. وكل ما يلحظ من خلاف بينه وبين سابقيه هو في تسمية بعض الأنواع، فالتصدير، والالتزام مثلاً عنده هما رد العجز على الصدر، ولزوم ما لا يلزم عند غيره. ولعل التباين في تسمية بعض أنواع المحسنات عند ناشئ من صعوبة تطويع اسم النوع كله للنظم.

وقد وضع ابن حجة الحموي شرحاً مطولاً لبديعته في ٤٦٧ صفحة أطلق عليه اسم «خزانة الأدب». وربما كان هذا الشرح أهم من البديعة ذاتها، لأنه قد حوّل حقيقة «خزانة أدب» أودعها الكثير من علمه ومعارفه.



فهو يكثر في «خزانة الأدب» والشواهد وخاصة لشعراء عصره والقريبين منهم في العصر الأيوبي، وكثيراً ما يعرض لنوادرهم ومساجلاتهم الأدبية مع ذكر ما يستحسنه من أشعارهم. وقد يستطرد فيسوق بعض ملاحظات له أو لغيره متصلة بالبديع، أو يورد تراجم لبعض الأدباء، أو يتتبع المعاني التي أخذها شاعر من آخر، كتبنيه للمعاني التي أخذها صلاح الدين الصفدي من جمال الدين بن نيانه.

فالشرح الذي أودعه «خزانة الأدب» هو في الواقع موسوعة أدبية تجمع بين اللغة والأدب والبلاغة والنقد والتاريخ والتراجم ومنظوم الكلام ومشوره، وهو في ذلك كله مرجع عام لا غنى عنه، ومرجع خاص لشعراء العصرين الأيوبي والمملوكي.

٢ - وللسيوطي^(١):

جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الحفصيري الأسيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة بديعية سماها «نظم البديع في مدح خير شفيح» وله عليها شرح، ولكنها لم تنل من الشهرة ما نالته غيرها من بديعيات.

٣ - عائشة الباعونية:

هي التقية عائشة بنت يوسف بن أحمد بن نصر الباعوني المتوفاة سنة ٩٢٢ للهجرة، أثنى عليها كثير من الأدباء، وهي شاعرة ذات ديوان شعر بديع. ولها في مدح الرسول بديعية فريدة في مائة وثلاثين بيتاً، أطلقت عليها اسم «الفتح المبين في مدح الأمين»^(٢) ومطلعها:

في حسن مطلع أقماري بذى سلم أصبحت في زمرة المشاق كالعلم
وتحدثنا الباعونية في شرحها المختصر لبديعيتها عن سبب نظمها
فتقول: «هذه قصيدة صادرة عن ذات قناع شاهدة بسلامة الطباع، منقحة
بحسن البيان مبنية على آفاق تفرح من الله ورضوان، سافرة عن وجوه
البديع سامية بمدح الحبيب الشفيح، مطلقة من قيود تسمية الأنواع،
مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات بمقتضى
الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات «بالفتح المبين في مدح الأمين».

وتقول عن الشرح: «واستخرت الله تعالى بعد تمام نظمها وثبوت

(١) انظر ترجمة هذا العالم الجليل بقلمه في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ص: ١٥٥، وقد أعد له بروكلمان ٤١٥ مصنفاً بين كتب كثيرة ورسائل ومقامات طبع أكثرها.

(٢) هذه البديعية وشرحها على هامش «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي ابتداء من صفحة: ٣١٠.

اسمها في شرح يروق الطالب موارده وتمعظم عند المستفيد قوائده، وهو أن أذكر بعد كل بيت حد النوع الذي بنيت عليه، وأقر شاهده فإن ذلك مما يفتقر إليه، وأنحو في ذلك الاختصار ولا أدخل بواجب، وأتبع على ما لا بد منه قصداً لنفع الطالب.....

ومن هذه الكلمة نرى أن حب الرسول هو الدافع إلى نظم هذه البديعية التي حشدت فيها مائة وثلاثين نوعاً من المحسنات البديعية، وأنها لم تقتد بتسمية الأنواع، وأن طريقتها في الشرح أن تورد بعد البيت حد النوع الذي بنته عليه مشفوعاً بالشاهد في اختصار غير غل.

وقد وصف الشيخ عبد الغني النابلسي الباعونية بقوله: «إنها فاضلة ومن تأليفها هذه البديعية الفريدة المسماة بالفتح المبين في مدح الأمين، نظمتها على منوال تقي الدين بن نجدة، مع عدم تسمية النوع تمسكاً بطلاقة الألفاظ وانسجام الكلمات» وشرحتها بهذا الشرح المختصر الذي أسفرت فيه عن لسان البيان بقدر الطاقة والإمكان، ولها ديوان شعر بديع في المدائح النبوية كله لطائفها وهي تأليفها مؤلف جليل للنبي ﷺ اشتمل على فرائد النظم والنثر^(١).

٤ - ومن أصحاب البديعيات أيضاً صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني المتوفى سنة ١١١٧ للهجرة بمدينة حيدر آباد. وقد استهل صدر الدين هذا بديعته بقوله:

حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم له براعة شوق تستحل دمي
وهي على غرار بديعية كل من عز الدين الموصلي وثقي الدين بن حجة، من حيث تضمين أبياتها أسماء المحسنات البديعية. وقد وضع لها

(١) خزائن الأدب للحسوي ص: ٤.

شرحاً سماه «أنوار الربيع في أنواع البديع»، وفيه تعرض - كسابقه من أصحاب البديع - للحديث عن صنفوا في البديع، ودونوه في مدائحهم النبوية البديعية.

٥ - ومن عاصر صدر الدين واشتهر في هذا الميدان الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي^(١) المتوفى سنة ١١٤٣ من الهجرة. وهو شاعر مولع بالبديع، له مؤلفات مختلفة، منها بديعتان، نحا في إحداها منحى صفى الدين الحلبي وعائشة الباعونية، بمعنى أنه مثلها لم يلتزم فيها اسم النوع البديعي، ومطلع هذه البديعية التي سماها «نسمات الأسفار في مدح النبي المختار» هو:

يا منزل الركب بين البان فالعلم من سفح كاظمة حيث بالديم
وله فيها شرح سماه «نفحات الأزهار» تحدث فيه عن الفوا في
البديع ومن نظموا البديعات

أما بديعته الثانية فمطلعها

يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم براحة الشوق في استهلاها ألي
وهي على منوال بديعية عز الدين الموصلي وتقي الدين بن حجة،
من حيث تضمن كل بيت اسم النوع البديعي الذي بنى عليه. وقد كتب
كل بيت من البديعية الثانية أمام ما يمثله في هامش البديعية الأولى،
والتزم ذلك من طبعوا هذا الشرح. وللبديعية الثانية شرح وضعه القلعي
مع البديعات العشر.

وفي شرحه «نفحات الأزهار» يتحدثنا عن بديعته الأولى بقوله:

(١) انظر ترجمته في تاريخ الجبرج ج ٢ ص: ٢٢.

«نظمت هذه القصيدة الميعة المسماة بنسمات الأسحار في مدح النبي المختار على طريقة تلك القصائد البديعية، معرضاً عن نظم اسم النوع البديعي في أثناء البيت لأنني رأيت ذلك إنما يكسب تنافر الكلمات وغبابة المباني وقلاقة^(١) المعاني» ثم يستطرد إلى القول بأن التصرف في اسم النوع لضرورة النظم يجعل التعرف عليه من لا يعرف اسمه ورسمه أمراً صعباً. والغريب أنه مع نقده لهذا النوع من البديعيات يعتمد إلى نظم قصيدة بديعية من طرازها!.

كذلك ينبئنا في شرحه «نفحات الأزهار» أن أبيات كل من بديعيته تبلغ مائة وخمسين بيتاً، وأنها يشتملان على مائة وخمسة وخمسين محسناً بديعياً، بعد زيادة أنواع لطيفة وفنون ظريفة، لا توجد في البديعيات التي سبقته، «وربما اتفق في البيت الواحد النوعان والثلاثة بحسب انسجام القرينة في النظم، والمعتمد فيها على ما أسس البيت عليه» ثم يشير إلى أن شرحه وسط بين الإيجاز والإطناب حتى لا يشعر قارعه بالملل والسأم.

تلك هي أهم البديعيات التي ظهرت قبل العصر الحديث، أي منذ قام بالمحاولة الأولى في هذا الاتجاه علي بن عثمان الأربلي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري حتى عصر عبد الغني النابلسي. وفي العصر الحديث نلتقي أيضاً بآخرين من أصحاب البديعيات، ومن أشهر هؤلاء:

١ - البيروتي^(٢):

وهو السيد أحمد البربر البيروتي الذي ولد في دمياط ونشأ في بيروت

(١) قلاقة المعاني: اضطرابها.

(٢) له ترجمة في تاريخ أداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص: ١٩٩.

وتوفي في دمشق سنة ١٢٢٦ للهجرة. وكان شاعراً أديباً، ومن آثاره الأدبية: مقامات البربر، على نسق مقامات الحريري، والشرح الجلي على بيتي الموصلي، توسع في شرحهما حتى استغرق كتاباً كاملاً فيه كثير من فنون الأدب، والبيتان لأحد شعراء القرن الثامن عشر الميلادي، عبد الرحمن الموصلي، وهما:

إن مرّ والمرأة يوماً في بدي من خلفه ذو اللطف أسمى من سما
دارت تمائيل الزجاج ولم تزل تقفوه عدواً حيث سار وبما
وللبيروني هذا قصيدة بديعية في مدح الرسول أودعها الكثير من
أنواع المحسنات ولها شرح وضعه مصطفى الصلاحي.

٢ - الساعاتي:



المتوفى سنة ١٢٩٨ للهجرة

هو الأديب الشاعر محمود صفوت الزيلع الشهير بالساعاتي ولد في
القاهرة سنة ١٢٤١ من الهجرة وفي العشرين من عمره سافر إلى الحجاز
لأداء فريضة الحج، وهناك نم فضله عليه فأكرمه أمير مكة الشريف محمد
ابن عون وصحبه فظل ملازماً له وسافر معه إلى غزواته في نجد واليمن
ووصف كثيراً من وقائعه في شعره.

وعندما عزل الشريف محمد بن عون عن إمارة مكة هاجر إلى مصر
وفي صحبته الساعاتي، ثم سافر معه بعد ذلك إلى القسطنطينية، وفيها وقع
بينه وبين الشيخ زين العابدين المكي تنافس أدبي.

وفي أوائل عام ١٢٦٨ للهجرة عاد إلى القاهرة فوظف بالحكومة وظل
يتنقل من وظيفة إلى أخرى حتى فاجأته منيته سنة ١٢٩٨ للهجرة، وهو
عضو بمجلس أحكام الجيزة والقلوبية. وشعره إذا قيس بشعر من تقدموه

بيضعة قرون أو بشعر معاصريه أجود وأرقى .

وديوان الساعاتي مطبوع، وله فيه قصيدة بديعية في مدح الرسول تبلغ مائة واثنين وأربعين بيتاً التزم فيها تسمية أنواع البديع وعارض بها بديعية تقي الدين بن حجة الحموي . وقد نظمها سنة ١٢٧٠ للهجرة وأستهلها بقوله :

سفع الدموع لذكر السفع والعلم أبدى البراعة في استهلاله بدم
وقد جرى في نظمها عل طريقة ذكر النوع البديعي واتباعه بالبيت
الذي بناه عليه، وفيها يلي نموذج لذلك :

الثورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء هل بدر ونوريني كانت لبددهم


أقمار تمّ تعالوا في ~~تمتلكهم~~ ^{شرح} ~~فالعيب~~ مدمعه صب لبعدهم

المطابقة

قد طابقوا صحبتي بالسقم حين ناوا ولو دنوا لشفوا ما بي من الألم

وقد عني بشرح هذه البديعية شرحاً وافياً عبد الله باشا فكري .

ومن معاصري الساعاتي كثيرون لهم بديعيات، وقد تأثر بهذا الاتجاه بعض الشعراء المسيحيين فنظموا بديعيات في مدح عيسى عليه السلام .

ولعل الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٤١ للهجرة هو آخر من عرف بتعاطي هذا الفن، فقد نظم قصيدة بديعية وضع لها شرحاً أطلق عليه اسم «بديع التلخيص وتلخيص البديع» .

وأخيراً نجد الإشارة إلى أن الاشتغال بعلم البديع لم يقف عند حد الكتب التي صُنفت فيه وتميَّز الكثير منها بالأصالة والابتكار ولم يقف كذلك عند نظم البديعيات، هذا الاتجاه الذي ظهر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ثم أخذ الشعراء يتبارون ويفتون فيه على نحو ما رأينا.

أجل لم يقف الاشتغال بعلم البديع عند هذا الحد أو ذاك وإنما تجاوز ذلك أو انحط عن ذلك إلى نظم فنونه في متون شديدة الإيجاز والتعقيد والإيهام. مثل متن الجوهر المكنون^(١) في الثلاثة الفنون، و متن ابن الشحنة الحنفي.

حقاً قد يكون القصد من وراء هذه المنظومات التعليمية مساعدة الطالب على تذكر الفنون البديعية وحدودها وأقسامها عند الاقتضاء. ولكن أية فائدة يجنيها الطالب من حفظ أسماء ومصطلحات لا علم له بمدلولها، ولا يستطيع أن يستوعبها أو يميزها إذا عرضت له في نص من النصوص الأدبية؟

وعلى سبيل المثال هل يفيد الطالب شيئاً غير البأس من البلاغة والنفور منها عندما يقرأ الأبيات التالية التي أوردها صاحب متن الجوهر المكنون عند كلامه عن المحسنات البديعية المعنوية:

وعد من ألقابه المطابقة تشابه الأطراف والموافقة
والعكس والتسليم والمشاكلة تزواج رجوع أو مقابلة
تسوية تدعي بإيهام لما أريد معناه البعيد منها؟

على أية حال إن المتون نظماً كانت أو نثراً ليست بحنة فاصرة على

(١) صاحب هذا المتن هو عبد الرحمن الأخصري وهو نظم لكتاب «تلخيص المفتاح» للقرطبي.

البديع وإنما هي حنة شملت العلوم العربية في العصور المتأخرة عندما أخذت العقول بفعل عوامل شتى يرين عليها العقم والجمود.



وبعد فقد عرضنا لنشأة علم البديع وتطوره في العصور المختلفة، وعرفنا على ضوء هذا العرض كيف كانت مباحثه في أول الأمر عنصراً من عناصر البيان العربي، ثم كيف أخذت هذه المباحث في العصور الأولى تتميز وتنحدد معالمها شيئاً فشيئاً حتى صارت علماً مستقلاً على يد ابن المعتز، وقدامة، وأبي هلال العسكري وابن رشيق وغيرهم، وأخيراً كيف جاء شعراء البديع والصنعة من أمثال أبي تمام فثغروا في الشعر ثغرة نفذ منها بالإضافة إليهم أصحاب البديع والبديعيات والمثون وراحوا جميعاً ينظرون إلى البديع على أنه غاية لا وسيلة يستعان بها على تذوق الأساليب البيانية والارتقاء بها، وبذلك أسلموا من حيث أرادوا الإحسان.

وإذا كان الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة قد أسرفوا في استعمال البديع وصارت لهم شهرة عظيمة وإذا كان علماء البديع قد توسعوا في مفهومه حتى شمل الصور البيانية وكثيراً من صور المعاني، وحتى أضافوا إليه ما ليس منه، فخلطوا بذلك بديعاً مزيفاً بالبديع الحقيقي - فإن ذلك كله لا يطن في قيمة البديع بمقدار ما يدل على سوء فهمهم وقصورهم وجهودهم.

ولعل في دراستنا لبعض فنون البديع ما يرجع بهذا العلم إلى صورته الجميلة عند ابن المعتز وقدامة وأبي هلال وأضرابهم، وما يرد إليه اعتباره كقيمة جمالية في الأدب.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

فنون علم البديع

عرفنا من المقدمة السابقة في نشأة البديع وتطوره أن عبدالله بن المعتز هو أول من قام بمحاولة علمية جادة في سبيل تأسيس علم البديع وتحديد مباحثه التي كانت من قبل غائبة بمباحث علم المعاني وعلم البيان.

مركز تحقيق تكثير علوم بني هاشم

وتتمثل محاولته هذه في كتاب «البديع» الذي ألفه وضمّنه ثمانية عشر فناً من فنون البديع. وقد مهدت محاولته السبيل أمام البلاغيين من بعده فتأثروا وأفادوا منها في تطوير هذا العلم واستكمال مباحثه وقضاياها.

فقدامة بن جعفر وهو من معاصري ابن المعتز أولى البديع اهتمامه وزاد فيه تسعة أنواع جديدة، وأبو هلال العسكري اعتمد ما أتى به ابن المعتز وقدّامة من فنون البديع وأضاف إليها حتى بلغت عنده سبعة وثلاثين نوعاً، ثم جاء ابن رشيق القيرواني فزاد على من تقدموه تسعة أنواع لم يرد لها ذكر عندهم.

وهكذا أخذت فنون البديع تنمو وتتكاثر على تعاقب الأجيال

والعصور حتى بلغت في القرن الثامن الهجري عند الشاعر صفى الدين الحلي مائة وخمسة وأربعين محسناً بديعياً.

وهذه المحسنات يقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها عن التعقيد المعنوي.

والمحسنات البديعية ضربان: معنوي يرجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً.

وضرب لفظي يرجع إلى تحسين اللفظ أصلاً، وإن تبع ذلك تحسين المعنى لأن المعنى (إن) عبّر عنه بلفظ حسن استبح ذلك زيادة في تحسين المعنى.

وليس من غرضنا هنا التوسيع في دراسة المحسنات البديعية إلى حد الإلمام بها جميعها، وإنما الغرض هو التركيز على أهم هذه المحسنات للتعرف عليها وبيان أثرها في تحسين الكلام لفظاً ومعنى.

ولما كانت المعاني هي الأصل والألفاظ كوابح وقوالب لها، فإننا نبدأ بدراسة المحسنات المعنوية.

المحسنات البديعية المعنوية

المطابقة

ويقال لها أيضاً: التطبيق، والطباق، والتضاد.

والمطابقة في أصل الوضع اللغوي أن يضع البعير رجله موضع يده، فإذا فعل ذلك قيل: طابق البعير.

وقال الأصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي

ذوات الأربع. وقال الخليل بن أحمد: طابقت بين الشيتين، إذا جمعت بينهما على حد واحد.

وليس بين التسمية اللغوية والتسمية الاصطلاحية أدنى مناسبة، ذلك لأن المطابقة أو الطباق في اصطلاح رجال البديع هي: الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر. كالجمع بين اسمين متضادين من مثل: النهار والليل، والبياض والسواد، والحسن والقبح، والشجاعة والجبن، والجمع بين فعلين متضادين مثل: يظهر ويبطن، ويسعد ويشقى، ويعز ويذل، ويحي ويميت. وكذلك كالجمع بين حرفين متضادين، نحو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فالجمع بين حرفي الجر «اللام» و«عل» مطابقة، لأن في «اللام» معنى المنفعة وفي «عل» معنى المصرة، وهما متضادان، ومثله قول الشاعر:

على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علي ولا ليا

وقد تكون المطابقة في الجمع بين نوعين مختلفين كقوله تعالى: ﴿أَوْمِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فإن أحد المتضادين اسم وهو «ميتاً» والآخر فعل وهو «أحييناه».

وقال زكي الدين بن أبي الأصبح المصري: المطابقة ضربان: ضرب يأتي بالفاظ الحقيقة. وضرب يأتي بالفاظ المجاز.

١- فالضرب الذي يأتي بالفاظ الحقيقة هو ما يسمى المطابقة أو الطباق، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَى﴾، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

ومنه قول النبي ﷺ: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه
لآخرته، ومن الشبيبة للكبر، ومن الحياة للموت، فوالذي نفس محمد بيده
ما بعد الحياة مستعتب^(١)»، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار.

ومن شواهد المطابقة الحقيقية شعراً قول الحماسي:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد نفسي حياة مثل أن أتقدما
وقول آخر:

لئن ساءني إن نلتني بمساة لقد سرني أني خطرت ببالك
٢- والضرب الذي يأتي بالفاظ المجاز يسميه قدامة بن جعفر
«التكافؤ» ومنه قول الشاعر:

حلو الشمائل وهو مر بأسل يحمي الدمار صبيحة الإرهاق
فقوله «حلو ومر» يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان ولا في
شمائله ما يذاق بحاسة الذوق
ومنه أيضاً قول الشاعر:

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب تحرك يقظان التراب ونائمه
فالمطابقة هي بين «اليقظان والنائم»، ونسبتها إلى التراب على سبيل
المجاز. وهذا هو «التكافؤ» عند قدامة وابن أبي الأصبع.
أما المطابقة عند قدامة ومن اتبعه فهي اجتماع المعنيين المختلفين في
لفظة واحدة مكررة، كقول زياد الأعجم:

(١) استرضاء، لأن الأعمال بطلت وانقضى زمانها، وقيل: رجوع عن الخطأ والذنب وطلب
للرضا.

وَنَبِيتُهُمْ يَسْتَصِرُّونَ بِكَاهِلٍ وَلِلْأَوَّلِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَمِنْهُمْ

فَاللَّفْظَةُ الْمَكْرُورَةُ هُنَا هِيَ «كَاهِلٌ» وَمَعْنَاهَا فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ «مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَمَّاتِ، يُقَالُ: فَلَانُ كَاهِلٌ بَنِي فَلَانٍ أَيَّ مُعْتَمَدِهِمْ فِي الْمَلَمَّاتِ وَسَنَدِهِمْ فِي الْمَهْمَاتِ». وَهِيَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي: مُقَدَّمٌ أَعْلَى الظَّهْرِ نَحْوَ يَلِي الْعُنُقِ.

• • •

أنواع المطابقة:

والمطابقة ثلاثة أنواع:

مطابقة الإيجاب.

مطابقة السلب.

وإيحاء التضاد.



١ - فمطابقة الإيجاب: هي ما صرح فيها بإظهار الضدين، أو هي ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً.

ومن أمثلتها بالإضافة إلى الأمثلة السابقة للمطابقة التي تأتي بلفظ الحقيقة قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، وقوله أيضاً: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾.

ومنه من أحاديث الرسول: «أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مِنْ قِطْعِكَ، وَتَعْطِيَ مِنْ حَرْمِكَ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ» وقال: «أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ».

ومنه شعراً قول امرئ القيس:

مَكْسَرٌ مَقْبَلٌ مَدْبِيسٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَلَهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

وقول مساقم:

أبعد بني أمي أسراً بمقبلي من العيش أو آسى على أثر مدبر؟
أولاك بنو خير وشر كليهما وأبناء معروف ألم ومنكر
ومته من الأقوال الماثورة: «غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل
في فعله» و«كدر الجماعة خير من صفو الفرقة».

٢ - ومطابقة السلب: وهي ما لم يصرح فيها بإظهار الضدين، أو
هي ما اختلف فيها الضدان إيجاباً وسلباً، نحو قوله تعالى: ﴿قل هل
يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، فالمطابقة هنا هي في الجمع
بين «يعلمون ولا يعلمون» وهي حاصلة بإيجاب العلم ونفيه، لأنها ضدان.

ومن مطابقة السلب أيضاً قول امرئ القيس:

جزعت ولم أجزع من البين جزعاً وعزيت قلبي بالكواعب مولما
فالمطابقة هي في الجمع بين «جزعت ولم أجزع» وهي حاصلة
بإيجاب الجزع ونفيه. *مرآتية كميته*

ومن المستحسن في ذلك قول بعضهم:

خُلِقُوا وما خُلِقُوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رُزِقُوا وما رُزِقُوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

٣ - إيهام التضاد: وهو أن يوهم لفظ الضد أنه ضد مع أنه ليس
بضد، كقول الشاعر:

ييدي وشاحاً أيضاً من ميه والجو غد لبس الوشاح الأغبرا
فإن «الأغبر» ليس بضد «الأبيض» وإنما يوهم بلفظه أنه ضد. ومثله
قول دعبيل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحكك الشيب برأسه فيكي
 فإن «الضحك» هنا من جهة المعنى ليس بـ «الشيب» لأنه كتابة
 عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة.
 ومنه قول قريظ بن أنيف:

يجزون من ظلم أهل الظلم مخفرة ومن إساعة أهل السوء إحسانا
 «فالظلم» ليس بـ «المخفرة» وإنما يوهم بلفظه أنه ضد.
 وقول شاعر آخر:

وأخذت أطرار الكلام فلم تدع شتاً يضر ولا مديحاً ينفع
 فـ «المدح» هو المصطلح وليس الشتم وإن كان قريباً من معناه، ولهذا
 فاستعماله ضداً للمديح هو من قبيل إيهام التضاد.



ظهور التضاد وخفاؤه: *مرآتية كنه في شرح أسدي*

والتضاد بين المعنيين قد يكون ظاهراً كما في الأمثلة السابقة، وقد
 يكون خفياً كقوله تعالى: ﴿عما خطيئهم أغرقوا فلا دخلوا ناراً﴾^(١) فلا دخل
 النار ليس ضد الإغراق في المعنى، ولكنه يستلزم ما يقابله وهو الإحراق؛
 فإن من دخل النار احترق، والاحترق ضد الغرق.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على
 الكفار رحماء بينهم﴾. فالمطابقة هنا هي في الجمع بين «أشداء» و«رحماء»
 فلفظة «رحماء» ليست ضداً في المعنى «لأشداء» ولكن الرحمة تستلزم

(١) عما خطيئهم: من أجل خطاياهم وسببها.

اللين المقابل للشدّة، لأن من رحم لأن قلبه ورق. ومن هذه الناحية الخفية صحت المطابقة.

ومنه شعراً قول الحماسي:

لهم جلّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لا أكلفهم رفداً^(١)
ففي قوله «تتابع لي غنى» معنى الكثرة التي هي ضد القلة.

أما قول أبي الطيب المتنبي:

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم؟
فهو من المطابقة الفاسدة، لأن المجرم ليس بضد في المعنى للمحب بوجه ما، وليس للمحب ضد إلا المبغض.

بلاغة المطابقة:

وبلاغة المطابقة لا يكفي فيها الإتيان بمجرد لفظين متضادين أو متقابلين معنى، كقول الشاعر:

ولقد نزلت من الملوك بمأجد فقر الرجال إليه مفتاح الغنى
فمثل هذه المطابقة لا طائل من ورائها لأن مطابقة الضد بالضد على هذا النحو أمر سهل. وإنما جمال المطابقة في مثل هذه الحالة أن ترشح بنوع من أنواع البديع يشاركها في البهجة والرونق، كقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾. ففي العطف بقوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال

(١) الرد: العطاء.

العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده. وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الله. فهنا اجتمعت المطابقة الحقيقية ومبالغة التكميل.

ومثله قول امرئ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
فالمطابقة في الإقبال والإدبار، ولكنه لما قال «معاً» زادها تكميلاً، فإن المراد بها قرب الحركة وسرعتها في حالتي الإقبال والإدبار، وحالة الكر والفِر. فلو ترك المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة ولا هذا الوقع الحسن في النفس.

ثم إنه استطراد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد^(١) البديعي. وهذا لا يحتمل بيت امرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد.

ومن كسا المطابقة ~~بديعية~~ ~~البديعية~~ ~~البديعية~~ المتني حيث قال:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكأنا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت ل سيفه: رفيقك قيسي وأنت يماني^(٢)

(١) الاستطراد البديعي أن يكون الشاعر في غرض من أغراض الشعر فيوهم أنه مستمر فيه ثم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما، على أن يكون المستطراد به آخر الكلام.

(٢) هو شبيب الخارجي، خرج على كافور وقصد دمشق وحاصرها وقتل على حصارها. كان من قيس وبين قيس واليمن عداوات وحروب قديمة، والسيف الجديد ينسب إلى اليمن فيقال له «يماني»، ومراد المتني هنا أن شيباً لما قتل وفارق السيف كفه، فكأن الناس قالوا ل سيفه أنت يماني وصاحبك قيسي ولهذا جابه السيف وفارقه. انظر المثل السائر ص ٢٥٨.

فالمطابقة هنا هي في الجمع بين «قيسي ويماني» وقيسي منسوب إلى قيس من عدنان ويماني منسوب إلى اليمن من قحطان وكان بينهما شقاق وتنازع واختلاف، ومن هنا أتى التضاد بين «قيسي ويماني». والتورية في لفظة «يماني» لأن الشاعر يعني أن كف شبيب وسيفه متنافران فلا يجتمعان لأن شبيباً كان قيسياً والسيف يقال له: «يماني» فوزي به عن الرجل المنسوب إلى اليمن.

وقد أكثر الشعراء من استخدام المطابقة المجردة والارتفاع بجملها وبلاغتها بما يضمنونه إليها أو يكملونها أو يكسونها به من فنون البديع والبيان كالجناس واللف والنشر والتورية والتشبيه والاستعارة والتضمين.

المقابلة

يعد قدامة بن جعفر من ~~أوائل~~ من تكلموا عن «المقابلة» فقد ذكرها في معرض الحديث عن بعض الخصائص الأسلوبية التي تعلي من قيمة الشعر. قال قدامة: «والفني يتكسب من ~~الخصائص~~ المقابلة، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنات صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، واعتدال الوزن، وإصابة التشبيه، وجودة التفصيل، وقلة التكلف، والمشاكلة في المطابقة. وأضداد هذا كله معيبة ثمجها الأذان، وتخرج عن وصف البيان»^(١).

وقد عرفها في كتابه «نقد الشعر» بقوله: وصحة المقابلة أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق أو المخالفة بين بعضها وبعض، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف على الصحة، أو بشرط شروطاً أو يحدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيها يوافقه بمثل الذي شرطه وعده، وفيما

(١) كتاب نقد النثر لقدامية ص ٨٤.

يخالف بضد ذلك^(١) ومن أمثله على ذلك قول الشاعر:

أموت إذا ما صد عني بوجهه ويفرح قلبي حين يرجع للوصل
وقد علّق قدامة على البيت بقوله: «فجعل ضد الموت فرح القلب،
وضد الصد بوجهه الوصل، وهذه مقابلة قبيحة، ولو قال:

أموت إذا ما صدّ عني بوجهه وأحيا إذا ملّ الصدود وأقبل
فجعل جزاء الموت الحياة، وجزاء الصد بالإقبال لكان
مصيباً»^(٢).

وجاء أبو هلال العسكري بعد قدامة فعرف المقابلة بقوله: «هي
إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة،
نحو قوله تعالى: ﴿فمكروا مكراً ومكرنا مكراً﴾، فالمكر من الله تعالى
العذاب، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته»^(٣).

وعرف ابن رشيق القيرطقي المقابلة بقوله: «هي ترتيب الكلام على
ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً وآخره ما يليق به آخراً،
ويؤتى في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه. وأكثر ما تحيى المقابلة
في الأضداد، فإذا جاوز الطباق صدين كان مقابلة، مثال ذلك ما أنشده
قدامة لبعض الشعراء، وهو:

فيا عجباً كيف اتفقنا فناصح وفي ومطوي على الفل غادر

(١) نقد الشعر ص ٩٥.

(٢) نقد النثر ص ٨٥.

(٣) كتاب الصناعتين ص ٢٢٧.

فقابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر، وهكذا يجب أن تكون
المقابلة الصحيحة»^(١).

كذلك عرف الخطيب القزويني المقابلة في كتابه التلخيص بقوله:
«هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب»^(٢)
وهو يعني بالتوافق خلاف التقابل، نحو قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً
وليبكوا كثيراً﴾.

ومن التعاريف السابقة يمكن القول بأن المقابلة هي: أن يؤتى
بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب.
والبلاغيون مختلفون في أمر المقابلة، فمنهم من يجعلها نوعاً من
المطابقة ويدخلها في إيهام التضاد، ومنهم من جعلها نوعاً مستقلاً من أنواع
البديع، وهذا هو الأصح، لأن المقابلة أعم من المطابقة.

وصحة المقابلات تتمثل في توحى المتكلم بين الكلام على ما ينبغي،
فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أن بأصدادها في عجزه على الترتيب، بحيث
يقابل الأول بالأول، والثاني بالتالي، لا يحرم من ذلك شيئاً في المخالف
والموافق. ومتى أخل بالترتيب كانت المقابلة فاسدة.

الفرق بين المطابقة والمقابلة:

والفرق بين المطابقة والمقابلة يأتي من وجهين: أحدهما أن المطابقة لا
تكون إلا بالجمع بين ضدين، أما المقابلة فتكون غالباً بالجمع بين أربعة
أضداد: ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه. وقد تصل المقابلة إلى
الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر وخمسة في العجز.

(١) كتاب المعلة ج ٢ ص ١٤.

(٢) كتاب التلخيص ص ٣٥٢.

والثاني: أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، على حين تكون المقابلة بالأضداد وغير الأضداد، ولكنها بالأضداد تكون أعلى رتبة وأعظم موقعاً، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

فانظر إلى عجيء الليل والنهار في صدر الكلام وهما ضدان، ثم قابلهما بضدين: هما السكون والحركة على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ مرادف فاكتسب الكلام بذلك ضرباً من المحاسن زائداً عن المقابلة؛ ذلك أنه عدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، لكون الحركة تكون لمصلحة ولفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون الفسدة.

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. فقد أتى في كل صدر الكلام وعجزه بضدين، ثم قابل الضدين في صدر الكلام بضدين هما في العجز على الترتيب.

مرآة تحقيق تكملة شرح أسدي

أنواع المقابلة:

والمقابلة تأتي على أربعة أنواع على النحو التالي:

١- مقابلة اثنين باثنين: نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾، ونحو قوله عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ عِبَاداً جَعَلَهُمْ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ مَغَالِيقَ الشَّرِّ)، وقوله أيضاً للأنصار: (إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرْعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمْعِ). وكقول رجل يصف آخر: «لَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ فِي السِّرِّ وَلَا عَدُوٌّ فِي الْعِلَانِيَةِ».

ومن مقابلة اثنين باثنين في الشعر قول النابغة الجعدي:

فَقَدْ كَانَ فِيهِ مَا يَسِرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

وقول المعري:

يا دهر يا منجز إيماده وخلف المأمول من وعده
ومن مليح هذه المقابلة وخفيها قول العباس بن الأحنف:
اليوم مثل الحول حتى أرى وجهك والساعة كالشهر
فقد قابل اليوم بالساعة، والحول بالشهر، لأن الساعة من اليوم
كالشهر من الحول جزء من اثني عشر جزءاً.

٢ - مقابلة ثلاثة بثلاثة: نحو قوله تعالى: ﴿يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ وقول علي بن أبي طالب لعثمان بن عفان: «إن الحق ثقيل وهين، والباطل خفيف مرئ».

ومن أمثلتها شعراً قول أبي تمام:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

٣ - مقابلة أربعة بأربعة: نحو قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره الليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾. وقوله: ﴿استغنى﴾ مقابل لقوله: ﴿اتقى﴾ لأن معناه زهد فيما عنده واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى.

ومن مقابلة أربعة بأربعة أيضاً قول أبي بكر الصديق في وصيته عند الموت: «هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها»، فقابل: أولاً بآخر، والدنيا بالآخرة، وخارجاً بداخل، ومنها بفيها.

ومنه شعراً قول أبي تمام:

يا أمة كان قبج الجور يسخطها دهرأ فاصبح حسن العدل يرضيها
وقول جرير:

وساسط خير فيكم يمينه وقابض شرعنكم بشماله
وقول ابن حجة الحموي:

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولوا غضاباً فواحرى لغيظهمو
فالمقابلة هنا بين «قابلتهم وولوا» و«الرضى والغضب» و«السلم
والحرب» و«الانشراح والغيظ».

٤ - ومن مقابلة خمسة بخمسة: قول الشاعر:

بواطىء فوق خد الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتم
فالمقابلة هنا بين «باطيء» و«طائر» لأن «الباطيء» هو الماشي على
الأرض، و«الطائر» هو السائر في الفضاء بين «فوق وتحت» و«خد وذيل»
لما بينهما من معنى العلو والسفل، و«الصبح» و«الليل» و«مشتهر ومكتم».
ومنه قول صفي الدين الحلي:

كان الرضا بدنوي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارهمو
فالمقابلة بين «كان وصار» و«الرضا والسخط» و«الدنو والبعد» و«من
وعن» و«خواطرهم وجوارهم» على مذهب من يرى أن المقابلة تجوز
بالأضداد وغيرها.

ومنه أيضاً قول أبي الطيب المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأثنى وبياض الصبح يغري بي
ومقابلة «الليل بالصبح» لا تحسب إلا على المذهب القائل بجواز

المقابلة بين الأضداد وغيرها. أما على المذهب القائل بقصر المقابلة على الأضداد فقط فإن المقابلة بين «الليل والصبح» تكون غير تامة؛ لأن ضد الليل المحض النهار لا الصبح.

• - ومن مقابلة ستة بستة: قول صاحب شرف الدين الأربلي:

على رأس عبد تاج عز يزينه وفي رجل حر قيد ذل يشينه
فالمقابلة هنا بين «على وفي» و«رأس ورجل» و«عبد وحر» و«تاج وقيد» و«عز وذل» و«يزينه ويشينه».

ويرى علماء البديع أن أعلى رتب المقابلة وأبلغها هو ما كثر فيه عدد المقابلات شريطة ألا تؤدي هذه الكثرة إلى التكلف أو توهي به.

كذلك يرون أن المقابلة بالأضداد أفضل وأتم، وهذا هو مذهب السكاكي؛ فالمقابلة عندهم ^{التي تجمع} بين شيئين فأكثر ثم تقابل ذلك بالأضداد، وإذا شرطت في أحد الشيئين أو الأشياء شرطاً شرطت فيها يقابله ضده.

مركز تحقيق مكتبة نور عجم

وبعد فلعلنا أدركنا الآن على ضوء دراستنا لكل من المطابقة والمقابلة مدى أثرهما في بلاغة الكلام. فكل منهما يضيف على القول رونقاً وبهجة ويقوي الصلة بين الألفاظ والمعاني، ويجلو الأفكار ويوضحها شريطة أن تجري المطابقة أو المقابلة بحري الطبع. أما إذا تكلفها الشاعر أو الأديب فإنها تكون سبباً من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيد.

ومن صفات الأدب الجيد تلاحم أجزائه واثتلاف ألفاظه حتى كأن الكلام بأسره من حسن الجوار وشدة التلاحم كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد. وكما يتم هذا التلاحم عن طريق التشابه يتم

كذلك من طريق التضاد، لأن المعاني يستدعي بعضها بعضاً، فمنها ما يستدعي شبيهه، ومنها ما يستدعي مقابله، بل إن الضد أكثر خطوراً على البال من الشبيه وأوضح في الدلالة على المعنى منه.

وعلى هذا كلما ظهرت المطابقة أو المقابلة في الكلام بدعوة من المعنى لا تطفلاً عليه، كانت أنجح في أداء دورها المنوط بها في تحسين المعنى.

المبالغة

إذا نظرنا إلى المبالغة من الناحية التاريخية فإننا نجد أن عبداً بن المعتز هو أول من تحدث عنها، فقد عدّها في كتابه «البدیع» من محاسن الكلام والشعر، وعرفها بأنها «الإفراط في الصفة»، ومثل لها.

وفهم من الأمثلة التي أوردها أن الإفراط في الصفة يأتي عنده على ضربين: ضرب فيه ملاحقة وقبول، وآخر فيه إسراف وخروج بالصفة عن حد الإنسان.

فمن النوع الأول عنده قول إبراهيم بن العباس الصولي:

يا أخاً لم أر في الناس خيلاً مثله أسرع هجراً ووصلاً
كنت لي في صدر يومي صديقاً فعل عهدك أميت أم لا؟

ومن النوع الآخر الإسراف قول الخثعمي:

يُدلي يديه إلى القلب فيستقي في سرجه بدل الرشاء المكرب
وقول آخر يهجو رجلاً:

تبكي السموات إذا ما دعا وتستعيد الأرض من مجدته

إذا اشتهى يوماً لحوم القطا صرّعها في الجو من نكهته^(١)



ثم جاء بعد ابن المعتز قدامة بن جعفر فتحدث عن إفراط الصفة
وهذه من نعوت المعاني، وكان أول من أطلق عليه اسم «المبالغة».

وقد عرّفها بقوله: «المبالغة أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في
شعر، لو وقف عليها لأجزاء ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حق
يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد، وذلك مثل
قول عمير التغلبي:

ونكرم جيراننا ما دام فينا وتبعه الكرامة حيث كنا
فأكرامهم للجار ما كان فيهم - أي مدة إقامته بينهم - من الأخلاق
الجميلة الموصوفة، واتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة...»^(٢) ثم
أورد بعض أمثلة أخرى للمحسوب منها والمكروه.

وفي كتابه «نقد النثر» ~~نقد النثر~~ من الإسراف في المبالغة فقال: «وما
أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال، وهو مع ذلك
مستحسن قول أبي نواس:

تغطيت من دهري بظل جناحه فعني ترى دهري وليس يراني
فلو تُسأل الأيام عني ما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني»^(٣)



(١) كتاب البلدعي لابن المعتز ص ٥٨ - ٦٦. والنكهة: ربح الفم.

(٢) كتاب نقد الشعر لقدامية ص ١٠١ - ١٠٣.

(٣) كتاب نقد النثر ص ٩٠.

ومن بعد قدامة جاء أبو هلال العسكري فعرف المبالغة بقوله:
 «المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة
 عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه، ومثاله من القرآن قول الله تعالى:
 ﴿يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى
 الناس سكارى وما هم بسكارى﴾. ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها
 لكان بياناً حسناً وبلاغاً كاملة، وإنما خصّ المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة
 أشفق على ولدها لمعرفة حاجته إليها، وأشفق به لقربه منها ولزومها له،
 لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً، وعلى حسب القرب تكون المحبة والألف...
 وقوله تعالى: ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾، لو قال يحسبه الرائي
 لكان جيداً، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن، لأن حاجته إلى الماء أشد،
 وهو على الماء أحرم^(١).

وبعد أن أورد أبو هلال بعض أمثلة من الشعر للمبالغة، تحدث عن
 نوع آخر منها فقال: «ومن المبالغة نوع آخر، وهو أن يذكر المتكلم حالاً
 لوقف عليها أجزائه في غرضه ليظهر بها ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة
 تؤكد، ويلحق به لاحقة تؤيده، كقول عمير التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا وننبه الكرامة حيث مالا
 فإكرامهم الجار ما دام فيهم مكرمة، واتباعهم إياه الكرامة حيث
 مال من المبالغة^(٢).

وكلام أبي هلال هذا عن النوع الآخر من المبالغة هو في الواقع
 ترديد لرأي قدامة السابق في المبالغة واستشهاد ببعض أمثله.

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٦٥.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٦٦.

كذلك عرض ابن رشيقي القيرواني للمبالغة، فذكر أنها ضروب كثيرة، وأن الناس فيها مختلفون: منهم من يؤثرها ويقول بتفضيلها، ويرأها الغاية القصوى في الجودة، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر الناس من استجيد كذبه وضحك من رديته.

ومنهم من يعيبها وينكرها ويرأها عيباً وهجنة في الكلام، وقد قال بعض حذاق نقد الشعر: إن المبالغة ربما أحالت المعنى، ولُبسته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه، لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضاً الإبانة والإفصاح، وتقريب المعنى على السامع.

فإن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور، وقبلته النفوس لأصالة حنة، وإشارات لطيفة تكسبه بياناً، وتصوره في القلوب تصوراً ولو كان الشعر هو المبالغة لكان المحدثون أشعر من القدماء، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها وبالتشكيك في الشبهين، كما قال ذو الرمة:

فيا ظبية الوعاء بين جلاجل وبين النقا آنت أم أم سالم؟
فلو قال: أنت أم سالم، على نفي الشك بل لو قال: أنت أحسن من الظبية، لما حل من القلوب محل الشك، وكما قال جرير:

فإنك لو رأيت عبيد تيم وتيماً قلت: أيهم العبيد؟
فلو قال: «عبيدُهم» أو «خير منهم» لما ظنَّ به الصديق، فاحتال في تقريب المشابهة، لأن في قربها لطافة تقع في القلوب، وتدعو إلى التصديق.
والمبالغة في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر، إذا أعياه إيراد

معنى بالغ، فيشغل الإسماع بما هو محال، ويهول مع ذلك على السامعين، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام.

ويعلق ابن رشيق على الرأي السابق الذي أورده لأحد الخذاق بنقد الشعر قائلاً: «وفي هذا الكلام كفاية وبلاغ، إلا أنه فيها يظهر من فحواه لم يرد إلا ما كان فيه بعد، وليس كل مبالغة كذلك.

فالخلو هو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الخلاف لا ما سواه... ولو بطلت المبالغة كلها وعيت لبطل التشبيه وعيت الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام...»^(١).



أما السكاكي ومن جراه من أمثال الخطيب القزويني فيعدون «المبالغة المقبولة» من محاسن الكلام وينسبونها، ويعرفونها بقولهم: «والمبالغة أن يُدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً، لئلا يظن أنه غير متناه فيه»^(٢)، أي لئلا يتوهم أن أحداً من العقلاء يظن أن الوصف المدعى غير متناه في الشدة والضعف.

والسكاكي إذ يقيد المبالغة «بالمقبولة» إنما يشير بهذا القيد إلى الرد على من زعم أن المبالغة مردودة مطلقاً، محتجاً بأن خير الكلام ما خرج مخرج الحق، وكان على منهج الصدق، كقول حسان بن ثابت:

ولما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقاً
وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

وإلى الرد كذلك على من زعم أنها مقبولة مطلقاً، وأن الفضل

(١) كتاب العمدة ج ٢ ص ٥٠ - ٥٢.

(٢) كتاب التلخيص للقزويني ص ٣٧٠.

مقصود عليها، والمحاسن كلها منسوبة إليها، محتجاً بأن أحسن الشعر أكذبه، وخير الكلام ما بولغ فيه.

وتنحصر المبالغة عند السكاكي في التبليغ والإغراق والغلو؛ لأن الوصف المدعى إن كان ممكناً عقلاً وعادةً فتبليغ كقول امرئ القيس في وصف فرسه:

فمادى جداء بين ثورة ونعجة دراكاً ولم ينضج بماء فيغسل
فقد وصف فرسه بأنه طارد ثوراً ونعجة من بقر الوحش وأنه أدركهما وقتلها في طلق وشوط واحد من غير أن يعرق عرقاً مفرطاً يغسل جسده، أي أدركهما وصادهما دون معاناة مشقة ومقاساة شدة، وذلك أمر ممكن عقلاً وعادةً.

وإن كان الوصف ممكناً عقلاً لا عادةً فهو الإغراق، كقول عمير التغلبي:

ونكرم جاردنا صلحاً فنياً ويتبعه الكرامة حيث مالا
فالشاعر يدعي أن جاره لا يميل عنه إلى أي جهة إلا ويتبعه الكرامة. وهذا أمر ممكن عقلاً لا عادةً، أي أنه ممنوع عادةً وإن كان غير ممنوع عقلاً.

وعند السكاكي ومدرسته أن هذين النوعين من المبالغة، أي التبليغ والإغراق مقبولان. أما إذا كان الوصف المدعى غير ممكن عقلاً وعادةً فهو الغلو، كقول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق
فالغلو هنا هو في إسناد الخوف إلى النطف غير المخلوقة، وهذا أمر ممنوع عقلاً وعادةً.

ويرى السكاكي أن من الغلو أصنافاً مقبولة، منها ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة نحو لفظة «يكاد» التي تفيد عدم التصريح بوقوع المحال، نحو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فإن إضاءة الزيت كإضاءة المصباح من غير أن تمسه النار محال عقلاً. ولكن إدخال «يكاد» هنا أفاد أن المحال لم يقع ولكن قرب من الوقوع مبالغته. ومن الغلو المقبول عنده أيضاً ما تضمن نوعاً حناً من التخيل، كقول المتنبي يمدح ابن عمار:

أقبلت تبسم والجباد عوابس يخين بالخلق المضاعف والقنا
عقدت سناكبها عليه عثراً لو تبغي عتقاً عليه لأمكننا^(١)

فالمتنبي في البيت الثاني هنا أدهى تراكم الغبار الكثيف المرتفع من سناكب الخيل فوق رؤوسها، بحيث يحار أيضاً يمكن سيرها عليها. وهذا ممتنع عقلاً وعادة، لكنه تخيل حسن. وقد اجتمع الأمران في إدخال ما يقرب الغلو إلى الصحة وتضمن التخيل الحسن في قول القاضي الأرجاني:

يُخِيلُ لي أن سمر الشهب في الدجى وشدت بأهداب إليهن أجفاني
فالأرجاني يصف الليل هنا بالطول، فيقول: يخيل لي أن الشهب محكمة بالمسامير في الظلام لا تنتقل من مكانها، وأن أجفان عيني قد شدت بأهدابها إلى الشهب لطول سهري في ذلك الليل. وهذا تخيل حسن، ولفظ «يخيل» يزيده حسناً.

(١) يخين: يسرون سِر الخبي، وهو ضرب من العدو والجري، والخلق: المضاعف: الدروع الكثيرة، والقنا: الرماح، والسناكب: جمع سنبك، وهو طرف مقدم الحافر، والعتير: الغبار، والعتق بفتح العين والنون: ضرب من السير السريع.

ومن الغلو المقبول أيضاً ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة، كقول
القاتل:

أسكر بالأمس إن عزمت على الشر ب غدا إن ذا من العجب!

• • •

ومن كلام السكاكي السابق يتضح أن المبالغة المقبولة عنده هو ومن
لف لغة تنحصر في التبليغ، والإغراق، والغلو.

فإذا كان الوصف المدعى ممكناً عقلاً وعادة فهو التبليغ، وإذا كان
ممكناً عقلاً لاعادة فهو الإغراق، وإذا كان ممتنعاً عقلاً وعادة فهو الغلو.

كما يتضح أنه يرى أن هناك أصنافاً من الغلو مقبولة، منها ما أدخل
عليه ما يقربه إلى الصحة نحو لفظة وبكاده، ومنها ما تضمن نوعاً حسناً
من التخيل، ومنها ما اجتمع فيه الأمران، ومنها ما أخرج مخرج الهزل
والخلاعة.

فالسكاكي ومعه الخطيب القزويني يحددان المبالغة بأنواعها الثلاثة من
تبليغ وإغراق وغلو فناً واحداً من فنون البديع المعنوي.

ولكننا نرى أن المتأخرين من أصحاب البديع يعدون كلاً من المبالغة
بمعنى التبليغ، والإغراق، والغلو فناً بديعياً قائماً بذاته.

ولذلك فهم يقصرون المبالغة على التبليغ بمفهومه عند السكاكي،
أي إمكان وقوع الوصف المدعى عقلاً وعادة، أو كما يقولون في تعريفهم:
هي الإفراط في وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة.

واعتبار المتأخرين للمبالغة بأنواعها على أنها ثلاثة فنون بديعية
مستقلة فيه تطوير لمفهوم، المبالغة، وهو أولى بالاتباع لأنه يميز كل فن عن
الآخر، وبحول دون اختلاطها وتداخل بعضها في بعض.

ومن أجل ذلك يجدر بنا أن ندرس كلاً منها على حدة للخروج بصورة واضحة المعالم لكل فن من هذه الفنون البديعية الثلاثة. والآن وقد تتبعنا تاريخ المبالغة وتطورها وفصلنا القول عن المبالغة بمعنى التبليغ، أو بمعنى الإفراط في وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة، فإننا نأتي على بعض أمثلة أخرى لها تزيدها وضوحاً، ثم نتقل إلى دراسة كل من الإغراق والغلو على أنه فن بديعي مستقل بذاته.

فمن أمثلة المبالغة بمعنى التبليغ، أو بمعنى الإفراط في وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة، قوله تعالى في وصف أعمال الكافرين: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾.

فلو وقف الكلام عند ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج﴾ لكان المعنى تاماً بليغاً، ولكن ~~تكرار~~ الصفات بعد ذلك والإفراط فيها أضاف للمعنى ظلالاً زادت من درجة أهول الذي يطالعنا من خلال هذه الصورة التي لونتها المبالغة ~~تكرار~~ في البلاغة إلى ذروة الإعجاز.

ومن الأمثلة أيضاً قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة:

لم يبق جودك لي شيئاً أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل

ومنه قول ابن الرومي مبالغة في البخل:

لو أن قصرك يا ابن يوسف محتل إبراهيم يضيق بها فناء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل!

وقوله أيضاً:

فتى على خبزه ونائله أشفق من والد على ولده
رغيفه منه حين تساله مكان روح الجبان من جسده

ومنه قول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان:

بطعنهم ما ارتموا حتى إذا أطمعوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقوا^(١)
فزهير جعل للمدوحه على أعدائه في كل حال من أحوال البسالة
والشجاعة فضلاً ومبالغة.

ومنه قول أبي فراس الحمداني مفتخراً:

وإني لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
وإني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشرر
فاظماً حتى ترتوي البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومنه قول المتنبي مفتخراً:

إذا صلت لم أترك مصالاً لصال وإن قلت لم أترك مقالاً لقائل
وقول آخر مادحاً آل المهلب
نسزت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في زمن المحل
فما زال بي إكرامهم وافتقادهم وإحسانهم حتى حسبتهم أهلي

الإغراق

ذكرنا فيما سبق أن المبالغة المقبولة عند السكاكي تنحصر في التبليغ
والإغراق والغلو. فإذا كان الوصف المدعى ممكناً عقلاً وعادة فهو التبليغ،
وإذا كان ممكناً عقلاً لاعادة فهو الإغراق، وإن كان ممتنعاً عقلاً وعادة فهو
الغلو.

(١) يصف المدح بأنه يزيد على أعدائه في كل حال من أحوال الحرب.

كذلك ذكرنا أن السكاكي عرف المبالغة المقبولة بقوله: «هي أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة والضعف حداً مستحيلًا أو مستبعداً».

وإذا تأملنا هذا التعريف وجدنا أنه ينطبق على نوعين فقط من أنواع المبالغة عند السكاكي هما: الغلو والإغراق. ذلك لأن الغلو هو المستحيل عقلاً وعادةً، والإغراق هو المستبعد وقوعه عادةً لا عقلاً.

وعلى ذلك فالإغراق في اصطلاح البديعيين: هو الوصف الممكن وقوعه عقلاً لاعادة، أو بعبارة أخرى: هو الإفراط في وصف الشيء بما يمكن عقلاً ويستبعد وقوعه عادةً. ومن أمثلة ذلك قول عمير التغلبي السابق:

ونكرم جارنا مادام فينا وتبعه الكرامة حيث مالا
فإكرامهم للجار مدة إقامة بينهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة،
ومدّه بالكرم عند رحيله وجعل هذا الكرم يتبعه ويشمله حيث كان وفي
كل جهة يميل إليها هو الإغراق، وهذا الكرم ممتنع عادةً وإن كان غير
ممتنع عقلاً.

وكل من الإغراق والغلو لا يُعدّ من محاسن القول ويديع المعنى إلا إذا دخل عليه أو اقترن به ما يقربه إلى الصحة والقبول، نحو «قد» للاحتمال، و«لو» و«لولا» للامتناع، و«كاد» للمقاربة، وما أشبه ذلك من أدوات التقريب.

ولم يقع شيء من الإغراق والغلو في القرآن الكريم ولا في الكلام الفصيح إلا بما يخرج من باب الاستبعاد والاستحالة ويدخله في باب الإمكان، نحو: كاد ولو وما يجري مجراها.

ومن أمثلة ذلك في الإغراق قوله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب

بالأبصار»، إذ لا يستحيل في العقل أن البرق يخطف الأبصار، ولكنه يمتنع عادة. والذي زاد وجه الإغراق هنا جمالاً هو تقريبه إلى الصحة بلفظة «يكاد»، واقتراح هذه الجملة بها هو الذي صرفها إلى الحقيقة، فقلبت من الامتناع إلى الإمكان.

ومن شواهد تقريب نوع الإغراق بلفظة «لو» قول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
فاقتراح هذه الجملة أيضاً بامتناع قعود القوم فوق الشمس المستفاد
بـ«لو» الذي أظهر بهجة شمسها في باب الإغراق على حد قول ابن
حجة الحموي.

ومما استشهد به أيضاً على نوع الإغراق بلفظة «لو» التي يمكن
الإغراق بها عقلاً ويمتنع عادة على القائل:
ولو أن ما بي من جوى رصباة على جل لم يدخل النار كافر
وقبل الحديث عن الإغراق في هذا البيت نذكر أن فيه نظراً من
طرف خفي إلى قوله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا
تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.
وكذلك نجزي المجرمين﴾ فالجمل له معنيان: الذكر من الإبل والحبل
الغليظ، وسم الخياط: ثقب الإبرة.

فاللغنى هنا أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها لا تفتح لهم
أبواب السماء، أي لا تقبل دعواتهم ولا أعمالهم، ولا يدخلون الجنة حتى
يدخل الجمل بأي معنى من معنيه السابقين في ثقب الإبرة. وبما أن دخول
الجمل المعروف أو الحبل الغليظ في ثقب الإبرة الضيق الصغير أمر بعيد
فكذلك دخول هؤلاء المكذبين بآيات الله الجنة أمر مستبعد.

ولهذا المعنى نظر الشاعر في البيت السابق، فهو يريد أن يقول: لو كان ما به من الحب بجمل لأصابه النحول والضمور والهزال إلى حد يمكنه من الدخول في سم الخياط، ولو تحقق دخول الجمل في سم الخياط لما بقي في النار كافر لزوال المانع لهم من دخول الجنة.

ودخول الجمل في سم الخياط لا يستحيل عقلاً إذ القدرة قابلة لذلك لكنه ممتنع عادة. فإن الله جلت قدرته إذا شاء وسّع سم الخياط حتى يدخل فيه الجمل، وإذا شاء رقق الجمل حتى يصير كالخيط الرفيع فيدخل في سم الخياط. ومن ذلك يتبين أن الأمر غير مستحيل عقلاً لكنه ممتنع عادة، وهذا غاية في الإغراق.



وبما استشهدوا به على الإغراق يغير أداة من أدوات التقريب قول امرئ القيس في وصف أنفاس صاحبته عند النهوض من النوم:

كأن المدام وصبوب الضمَامِ وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به برد أنيابها... إذا غرد الطائر المستحسر^(١)

فامرؤ القيس يصف طيب رائحة فم صاحبه سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم بأنه شبيه بطيب الرائحة المنبعثة من روائح الخمر المشوبة بالماء النقي والخزامى والبخور مجتمعة. فإذا كانت هذه رائحة ثغرها عند نهوضها مبكرة من النوم، فكيف تظن رائحة ثغرها في هوادي الليل

(١) المدام: الخمر يدام على شربها أو التي أديمت في دنها، وصبوب الغمام: مطر السحاب، وريح الخزامى: رائحة هذا النبات الطيب الريح، ونشر القطر بضم القاف والطاء: رائحة العود الذي يتبخر به، يعمل به برد أنيابها: يسقى به ثنابها الباردة مرة بعد مرة، الطائر المستحسر: الصوت في وقت السحر.

وأوائله؟. فالإغراق في تشبيه طيب رائحة فم امرأة عند تغير الأفواه بعد النوم بالرائحة الناشئة من اختلاط رائحة الخمر المشوبة بالماء النقي برائحة الخزامى والبخور - أمر غير مستحيل عقلاً لكنه ممتنع عادةً.

ومن الإغراق في الوصف أيضاً بغير أداة تقريب قول الشاعر:

قد سمعتم أنينه من بعيد فاطلبوا الشخص حيث كان الآنين
فوصف الشخص بأنه لا يرى لشدة نحوله إلا بأنين أو تاوه إغراق
في الوصف ممتنع عادةً، لكنه غير مستحيل عقلاً.

ونظير هذا المعنى قول ابن حجة الحموي:

وقد تجاوز جسمي حد كل ضئي وها أنا اليوم في الأوهام تخيل
ونظيره أيضاً قول شرف الدين عمر بن الفارض:

كأن هلال الشك لولا تلوهم خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي
ومنه قول صفي الدين الحلي في وصف معترك:

في معرك لا تثير الخيل عشيره مما تروى المواضي نربه بدم
فوصف المكان الذي يعترك فيه الفرسان بأن الخيل التي تحملهم
وتعدو بهم هنا وهناك لا تثير غباراً فوقها لكثرة ما ارتوى به تراب المعترك
من الدماء التي أراقتها السيوف المواضي - أقول هذا الوصف فيه إغراق
شديد، إذ لم تجر العادة أن ترتوي أرض معركة بالدم إلى هذا الحد، لكنه
أمر غير مستحيل عقلاً.

• • •

من كل ما تقدم يتضح أن الإغراق، وهو الوصف الممكن وقوعه
عقلاً لا عادةً نوعان: إغراق في الوصف تدخل عليه أداة تقريبه إلى

الصحة والقبول، وإغراق في الوصف مجرد من أدوات التقريب.

ولا شك أن المقارنة بين النوعين وعلى ضوء الشواهد السابقة تظهر أن الإغراق المقترن بأداة التقريب هو الأبلغ في وضوح الدلالة على المعنى وفي الإضافة إليه معنوياً بما يكسبه رونقاً وبهاءً وقبولاً.

ولكن على الرغم من كل شيء يبقى الإغراق بنوعيه فناً قائماً بذاته من فنون البديع المعنوية.

الغلو

الغلو في أصل الوضع اللغوي مجاوزة الحد والقدر في كل شيء والإفراط فيه. وهو مشتق من المبالغة، ومن غلوة السهم بفتح الغين وسكون اللام، وهي مدى رميه يقال: غلبت فلاناً مغالبة وغلاء بكسر الغين، إذا اختبرتما أيكما أبعد غلوة سهم.

وقد عرفنا بما سبق أن المبالغة بمعنى التبليغ هي إمكان الوصف المدعى عقلاً وعادة، وأن الإغراق هو إمكان الوصف المدعى عقلاً لاعادة.

أما الغلو في اصطلاح البديعيين فهو: امتناع الوصف المدعى عقلاً وعادة. وعلى هذا فإذا كان الإغراق فوق المبالغة بمعنى التبليغ في تجاوز الحد والإفراط في الصفة المدعاة، فإن الغلو فوق المبالغة والإغراق من هذه الناحية.

ولعل ابن رشيق القيرواني^(١) من أوائل من توسعوا في بحث

(١) انظر باب الغلو في كتاب العدة لابن رشيق ج ٢ ص ٥٧ - ٦٢.

«الخلو»، فقد تناوله في كتابه العمدة من جوانب متعددة ألم فيها ببعض آراء سابقيه ومعاصريه وعلق عليها بما عن له شخصياً من آراء وأفكار.

فهو أولاً يعارض من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هي في معرفته بوجوه الإغراق والخلو، ولا يرى ذلك إلا محالاً، لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف.

وهو يوافق الخذاق القائلين: «خير الكلام الحقائق، فإن لم تكن فما قاربها وناسبها، وأنشد المبرد قول الأعشى:

فلو أن ما أبقيت مني معلقاً يعود ثمام ما تأود عودها
فقال: هذا متجاوز، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذ شبه،
وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فهو.

وأصح الكلام عند أبي رشيق ما قام عليه الدليل، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله، فقد قرئت الخلو فيه بالخروج عن الحق، فقال جل من قائل: ﴿يا أهل الكتاب لا تغفروا في دينكم غير الحق﴾.

كما أن على تعريف قدامة «للخلو» وهو: تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه، وليس خارجاً عن طباعه. وعلى هذا تأويل أصحاب التفسير قوله تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾، أي: كادت...

كذلك أورد رأي القاضي الجرجاني^(١) في الإفراط، وخلاصته أن الإفراط مذهب عام في المحدثين وموجود كذلك لدى الأوائل، وأن الناس يختلفون فيه: من مستحسن قابل، ومستفح راد، وأن له رسوماً متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز بالوصف حدها سلم، ومتى تجاوزها اتسعت له

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الشهير بالقاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ، وصاحب كتاب الوساطة بين النبي وخصومه.

الغاية، وأدته الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق.

وللحاثمي^(١) في الغلو رأي ذكره ابن رشيق وهو: «وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلو والإغراق، ويختلفون في استحسانها واستهجانها، ويعجب بعض منهم بها، وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختباره، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب الفضيلة له، فيقولون: أحسن الشعر أكذبه، وأن الغلو إنما يراد به المبالغة والإفراط، وقالوا: إذا أتى الشاعر من الغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعلوم فإنما يريد به المثل ويلوغ الغاية في النعت، واحتجوا بقول النابغة وقد مثل: من أشعر الناس؟ فقال: من استجيد كذبه وأضحك رديته. وقد طعن قوم على هذا المذهب بمنافاته الحقيقية، وأنه لا يصح عند التأمل والفكرة».

ويعلق ابن رشيق على رسم الغالين بأن أبا تمام هو الذي توسع في باب الغلو وتبعه الناس بغير تفكير، وأما أبو تمام فما نحن فيه؟ فإذا صرت إلى أبي الطيب - المتنبي - صرت إلى أكثر الناس غلوًا، وأبعدهم فيه همة، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتاً واحداً، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غني، وله في غيره مندوحة كقوله:

يتسرشن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد
وإن كان له في هذا تأويل ومخرج يجعله التوحيد غاية المثل في
الحلاوة بفيه...^(٢)

(١) هو أبو علي محمد بن الحسن الحاثمي. كاتب شاعر ناقد له عدة كتب في النقد والأدب واللغة والتراجم، توفي سنة ٣٨٨ هـ.

(٢) كتاب المعلة ج ٢ ص ٥٧ - ٦٢.

بعد هذه المقدمات من كتاب العمدة لابن رشيقي والتي تعرض فيها للغلو من بعض الجوانب نذكر أن رجال البديع يقسمون الغلو قسمين: مقبول وغير مقبول:

١ - فالغلو الحسن المقبول عندهم هو ما دخل عليه أو اقترن به أداة من الأدوات التي تقربه إلى الصحة والقبول من نحو: «قد» للاحتمال، و«لو» و«لولا» للامتناع، و«كأن» للتشبيه، و«يكاد» للمقاربة، وما أشبه ذلك.

ومن أمثلة الغلو الحسن المقبول لاقتراحه بأداة من أدوات التقريب قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا بَضِيءٌ وَلَوْ لَمْ تَحْمِسْهُ نَارٌ﴾، فإن إضاءة الزيت من غير مسّ نار مستحيلة عقلاً، ولكن لفظة «يكاد» قربته فصار مقبولاً. ولهذا يجب على ناظم الغلو أن يسبكه في قوالب التخيلات الحسنة التي يدعو العقل إلى قبولها في قول وعمل.

ومن أمثلة الغلو المقبول أيضاً قول المعري:

تَكَادُ قَسِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تَمُكِّنُ مِنْ قُلُوبِهِمُ النُّسْبَالَ
تَكَادُ سَيْوْفُهُ مِنْ غَيْرِ مِلٍّ تَجِدُ إِلَى رِقَابِهِمْ انْسِلَالَ


فالقسي التي تعدد نبالها إلى القلوب من غير رام، والسيوف التي تنسل إلى الرقاب فتعمل فيها من غير أن تُسلّ من أغمادها أمران مستحيلان عقلاً وعادةً، ولكن الذي حسن هذا الغلو وجعله مقبولاً هو دخول لفظة «تَكَادُ» التي صيرت ما بعدها قريب الوقوع لا واقعاً فعلاً كما كان الشأن قبل تدخلها.

وعلى هذا النحو يمكن تفسير الغلو الحسن المقبول الذي دخلت عليه «يكاد» في قول ابن حمديس يصف فرساً:

ويكاد يخرج مسرعة من ظله لو كان يرغب في فراق رفيق
وقول الفرزدق في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله
وجهه:

يكاد يمسه عرفاناً راحته ركن الخطيم إذا ما جاء يستلم
وقول أبي صخر:

تكاد يدي تندي إذا ما لمستها وينبت في أطرافها الورق النضر
ومن الغلو الحسن المقبول لدخول أداة الامتناع «لو» عليه قول
البحثري في مدح الخليفة المتوكل:

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسمى إليه المنبر
فسمى المنبر إلى الخليفة الممدوح تعبيراً عن اشتياقه له عندما يعلوه
ليخطب في الناس إفراط في الغلو  قوله إلى الصحة والقبول لفظة «لو».
ومن هذا الضرب من الغلو المقبول قول أبي الطيب في ممدوحه:

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت نحيه إليك الأغصنا
فمد الأشجار أغصانها نحية للممدوح عند مروره بها أمر مستحيل
لامتناعه عقلاً وعادة، لكن الذي حسن هذا الغلو وجعله مقبولاً هو دخول
«لو» التي أفادت امتناع وقوع هذا الأمر المستحيل لامتناع أن تعقل
الأشجار.

والمتنبى كما يقول ابن رشيق من أكثر الشعراء ولعاً بالغلو وأبعدهم
فيه همة، حتى لو قدر ما أخل منه بيتاً واحداً. ومما جاء عنده أيضاً من هذا
الغلو المقبول لدخول «لو» عليه، قوله مخاطباً طلالاً:

لو كنت تنطق قلت معذراً بي غير ما بك أيها الرجل

وقوله مفتخراً:

ولو برز الزمان إلى شخصاً الخضب شعر مفرقه حسامي^(١)

وقوله في قبيلة الممدوح:

ولو يمتهم في الحشر تجددوا لأعطوك الذي صلوا وصاموا^(٢)

ومن الغلو المقبول والأداة المقربة إلى الصحة «لولا» قول أبي العلاء

المعري يصف سيف ممدوحه:

يذيب الرعب منه كل غضب فلولا الغمد يمسه لسال^(٣)

فالمرنى هنا أولاً: أن سيفك أيها الممدوح تهابه السيوف وتصاب

بالرعب والفزع منه كما يهابك الرجال ويصابون بالرعب والفزع منك،

وأشد ما يجوز على السيف أن يعمل حديدته ولولا الغمد يمسه لظهر

سيلانه.

فدوبان كل سيف إلى حد السيلان في غمده يباعث الرعب من

سيف الممدوح أمر ممتنع عقلاً وعطاءً. ولكن تدخل «لولا» التي أفادت

امتناع سيلان هذا السيف الذائب لوجود غمده الذي يمسه عن السيلان

قد جعلت هذا الغلو المفرط في المعنى مقبولاً.

(١) المفرق: وسط الرأس، والحسام: السيف الفاطم. يقول: إن الزمان الذي هو على

النكبات والنوائب لو كان شخصاً ثم برز إلي محارباً لخضب شعر رأسه سيفي.

(٢) يمتهم: قصدهم، وتجددوا: تطلب جدواهم وعطاءهم. يقول: إن أبناء قبيلة الممدوح

لجودهم وكرمهم لا يردون سائلاً حتى لو قصدهم سائل يوم القيامة لأعطوه صلاتهم

وصيامهم.

(٣) العضب: السيف.

٢- أما الغلو غير المقبول فيتمثل في المعنى الذي يمتنع عقلاً وعادةً مع خلوه من أدوات التقريب التي تدنيه إلى الصحة والقبول. فمن أمثلة ذلك قول المتنبي مادحاً:

فتى ألف جزء رأيه في زمانه أقل جُزئاً بعضه الرأي أجمع^(١)
فعلى ما في البيت من بعض التعقيد الناشئ عن التقديم والتأخير الذي اقتضاه الوزن يريد المتنبي أن يقول: إن هذا الممدوح فتى رأيه في أحوال زمانه بقدر ألف جزء، وأقل جزء من هذه الأجزاء يعادل جزء منه كل ما لدى الناس من الرأي.

فوجود إنسان رأيه على النحو الذي صورهُ الشاعر يمتنع عقلاً وعادةً، وهو غلو غث لا يدعو إلى الإعجاب به بل إلى التعجب منه!
ومنه أيضاً مادحاً:

ونفس دون مطلبها الشرب^(٢) وكيف دونها فيض البحار

ومنه قول أبي نواس في وصف الخمر في
فلما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها: قفي
مخافة أن يسطو علي شعاعها فيطلع يدماني على سري الخفي
فسطوة شعاع الخمر عليه بحيث يصير جسمه شفافاً يظهر لنديمه ما في باطنه لا يمكن عقلاً ولا عادةً، فهو غلو مفرط.

ومراتب القبول في الغلو تتفاوت إلى الحد الذي تؤول بقائلها إلى الكفر، فمن ذلك قول أبي نواس مادحاً:

(١) ترتيب البيت هكذا: فتى رأيه في زمانه ألف جزء أقل جزء من هذه الأجزاء بعضه - أي بعض جزئ - من رأيه الرأي الذي في أيدي الناس كله.

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وهذا كما لا يخفى أمر مستحيل، لأن قيام العرض الموجود وهو
الخوف بالمعدوم وهي النطف التي لم تخلق لا يمكن عقلاً ولا عادة.
ومنه قول ابن هانئ الأندلسي في مطلع قصيدة يمدح بها المعز لدين
الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأت الواحد القهار
فادعاء أن مشيئة المعز فوق مشيئة الأقدار وأنه هو الواحد القهار غلو
يوهم الكفر.

ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

تجاوزت مقدار الشجاعة والبر إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
فعلم الغيب مما استأثر الله به، فالزعم بأن إنساناً كائناً من كان
يعلم الغيب إفراط في الغلو يزول بغائله إلى الكفر.

الإيغال

والإيغال ضرب من المبالغة، إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها.
والإيغال مشتق من الإبعاد، يقال: أوغل في الأرض إذا أبعدها. وقيل
إنه سرعة الدخول في الشيء، يقال: أوغل في الأمر إذا دخل فيه بسرعة.

فعل القول الأول كان الشاعر قد أبعده في المبالغة وذهب فيها كل
الذهب، وعلى القول الثاني كأنه أسرع الدخول في المبالغة بمبادرته القافية.

والإيغال الذي هو ضرب من المبالغة مقصور على القوافي يعني أن

الشاعر إذا انتهى إلى آخر البيت استخرج قافية يريد بها معنى زائداً، فكانه قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ مراده فيه إلى زيادة عن الحد.

وهذا النوع من المبالغة مما فرعه قدامة بن جعفر وعرفه بقوله: «هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها ليكون الكلام شعراً أفاد بها معنى زائداً على معنى البيت»^(١).

وعرف أبو هلال العسكري الإيغال بقوله: «هو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً حسناً»^(٢).

سئل الأصمعي: من أشعر الناس؟ قال: الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسياً، أو ينقصي كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى، فسئل: نحو من؟ فقال: نحو الأعشى إذ يقول:

كناطح صخرة يوماً ليؤهنها ^{مزققت كمتور عندي} فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل^(٣)

فقد تم المثل - أي التشبيه - بقوله: «وأوهى قرنه» فلما احتاج إلى القافية قال «الوعل». فسئل: وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح؟ قال: لأنه ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضره.

ثم سئل: نحو من؟ قال: نحو ذي الرمة بقوله:

(١) خزائن الأدب لابن حجة الحموي ص ٢٣٤.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٨٠.

(٣) الوعل يكسر العين: ذكر الشاة الجبلية.

قف العيس في أطلال مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
أظن الذي يجدي عليك سؤاها دموعاً كتبديد الجمان المفصل^(١)

ففي البيت الأول تم الشاعر كلامه بقوله «كأخلاق الرداء» ثم
احتاج إلى القافية، فقال «المسلسل» فزاد شيئاً على المعنى.

وفي البيت الثاني تم كلامه بقوله «كتبديد الجمان» ثم احتاج إلى
القافية فأل بما يفيد معنى زائداً وهو «المفصل»^(٢).

ويقال: إن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى، أي الإيغال،
وذلك بقوله يصف الفرس:

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه نقول هزير الريح مرت بأثاب^(٣)

فالمعنى هنا أن الفرس إذا أجرى شوطين وابتل جانبه من العرق
سمعت له صوتاً وخفقا كخفق الريح إذا مرت بشجر الأثاب. فالشاعر
بالغ في وصف الفرس وجعله على هذه الصفة بعد أن يجري شوطين ويبتل
عطفه بالعرق، وقد تم المعنى بقوله «مرت» ثم زاد إيغالاً في صفته بذكر
الأثاب الذي يكون للريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة
صوت.

وعلى هذا فإذا كانت لفظة «أثاب» قد استدعتها القافية ليكون
الكلام شعراً، فإنها في الوقت ذاته أفادت معنى زائداً، وهو المبالغة في شدة

(١) أخلاق: جمع خلق بفتح الخاء واللام: الثوب البالي، المسلسل: المهلهل دموعاً كتبديد
الجمان المفصل: أي دموعاً تبدد وتتناثر كتبديد وتتناثر هذه الفضة المفصل، أي الذي
يحمل فيه خروزة بين كل حبتين من الجمان أي الفضة.

(٢) كتاب العملة ج ٢ ص ٥٤.

(٣) الأثاب: شجر كالانل يشتد صوت الريح وهزيره فيه، والعطف بكسر العين: الجانب.

حفيف الفرس بتشبيهه بهزيز الريح المنبعث من اصطدامها بأغصان هذا الشجر عند مرورها من خلاله.

ومن الإيغال قول امرئ القيس أيضاً:

كأن عيون الوحش حول خبائثنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
فهنا شبه الشاعر عيون الوحش لما فيهن من السواد والبياض
بالجزع، وهو الخرز الأسود المشوب بالبياض، ولما كانت عيون الوحش لا
ثقوب فيها كانت أشبه بالخرز الذي لم يثقب. فمعنى التشبيه تم بقوله
«الجزع» وقوله «الذي لم يثقب» إيغال في التشبيه زود البيت بالقافية وأفاد
معنى زائداً هو تأكيد التشبيه، لأن عيون الوحش غير مثقبة. ولا يخفى ما
في هذه الزيادة من حسن.

ومن الإيغال في التشبيه كذلك قول زهير:

كان فئات العهن في كل سكر ~~سكر~~ ^{سكر} به حب الفنا لم يحطم^(١)
والمعنى الذي عبر عنه ~~سكر~~ ^{سكر} ~~سكر~~ ^{سكر} قوله «حب الفنا» وزيادة
المعنى في قوله «لم يحطم». فزهير شبه ما نفتت وتساقط من العهن أو
الصوف الملون بحب الفنا الأحمر، ولما قال بعد تمام بيته «لم يحطم» أراد أن
يكون حب الفنا صحيحاً لأنه إذا كسر ظهر له لون غير الحمرة. فهذا
البيت شبه بيت امرئ القيس السابق من حيث أن الإيغال فيه زود
البيت بالقافية، وأفاد معنى زائداً في المشبه به.

ومن الإيغال البليغ باتفاق البديعين قول الخنساء في أخيها صخر:

(١) العهن بكسر العين وسكون الهاء: الصوف المصبوغ أي لون كان، وفئات العهن: ما
تساقط من الصوف المصبوغ ألواناً، والفنا: شجر نعره حب أحمر، وقال الفراء: هو
حب الثعلب.

وإن صخراً لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
 فإن معنى جملة البيت كامل من غير القافية، ووجودها زيادة لم تكن
 له قبلها. فالخساء لم ترض لأخيها أن يأتّم به جهال الناس حتى جعلته
 يأتّم به أئمة الناس، ولم ترض تشبيهه بالعلم، وهو الجبل المرتفع المعروف
 بالهداية، حتى جعلت في رأسه ناراً. فهذا الإيغال البديع أكمل معنى
 المشبه به، وزود البيت بالقافية.

ومن بديع إيغال المحدثين قول مروان بن أبي حفصة:

هم القوم: إن قالوا أصابوا، وإن دعوا أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
 فقوله «وأجزلوا» إيغال في نهاية الحسن.



والإيغال ليس مقصوراً على الشعر، وإنما هو مجيء في الشعر والنثر
 على حد سواء. ومجيئه في النثر المصنوع أكثر وذلك لإتمام الفواصل وزيادة
 المعنى. ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾. أفصحكم
 الجاهلية ييغون. ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿﴾. فإن الكلام تمّ
 بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً﴾ ثم احتاج الكلام إلى فاصلة
 تناسب القرينة أو الفاصلة الأولى، فلما أتى بها وهي ﴿لِقَوْمٍ يوقنون﴾ أفاد
 بها معنى زائداً، وذلك لأنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا
 من أيقن أنه سبحانه حكيم عادل.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾. إنك لا
 تُسمع الموق ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿﴾. فإن المعنى تمّ
 بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمُ الدَّعَاءَ﴾ ثم ورد ما بعد ذلك وهو ﴿إِذَا
 وَلُوا مدبرين﴾ لإتمام الكلام بالفاصلة وإفادة معنى زائد، هو المبالغة في

إعراض الكفار الذين شُبِّهوا بالموق في عدم انتفاعهم بالأدلة.
والإيغال الذي يُعَدُّ من البديع حقاً هو ما يستدعيه المعنى ويتطلبه
الكلام استكمالاً للشعر بالقافية وللشجع بالفاصلة. وليس من بديع المعنى
في شيء كل إيغال يتكلفه الشاعر أو الناثر.

التميم

أول من ذكر التميم وعده من محاسن الكلام عبدالله بن المعتز في
كتابه البديع^(١). وقد سماه «اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود
إليه فيتمه في بيت واحد»، ومثل له بثلاثة أبيات من الشعر منها:
لو أن الباخلين، وأنت منهم راوك تعلموا منك المطالا
فمبادرة الشاعر إلى الاعتراض بقوله «وأنت منهم» قبل تمام معنى
الكلام هو في الواقع تميم قصده المبالغة في بخل المخاطبة وأن الباخلين
وهي واحدة منهم جديرون بأن يعلموا منها المطال.
ومن بعد ابن المعتز جاء جدهم جعفر فاطلق على هذا المحسن
البديعي اسم «التميم» وعده من نعوت المعاني وعرفه بقوله: «هو أن يذكر
الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته
شيئاً إلا أتى به».

وقد استشهد عليه بأربعة عشر بيتاً من الشعر، منها قول نافع بن
خليفة الغنوي:

رجال إذا لم يقبل الحق منهم ويمطوه عاذوا بالسيوف القواطع^(٢)

(١) كتاب البديع ص ٥٩.

(٢) كتاب نقد الشعر لقدماء ص ٩٨، وعاذوا: التجأوا، والقواطع: جمع قاطعة، أي حادة
ماضية.

ثم يعلق على البيت قائلاً: «فما نمت جودة المعنى إلا بقوله «بمطو»،
والا كان المعنى منقوص الصحة»^(١).

ويبدو أن تعريف قدامة لهذا الفن البديعي لاقى استحسان
البلاغيين من بعده أكثر من تعريف ابن المعتز.

فأبو هلال العسكري اعتمد تعريف قدامة وأضاف إليه فأسماء
«التميم والتكميل» وعرفه على حسب مفهومه له، وأورد عليه أمثلة كثيرة
من القرآن الكريم والنثر والشعر.

والتميم والتكميل عند أبي هلال هو: أن توفي المعنى حظه من
الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تفادى معنى يكون فيه تمامه إلا
تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره^(٢).

وقد عرفه بعض رجال البصائر بقوله: «والتميم عبارة عن الإتيان في
النظم والنثر بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه».

مركز بحوث وتطوير علوم
أقسام التميم:

والتميم يأتي على ضربين: ضرب في المعنى وضرب في الألفاظ.

١ - فالتميم المعنوي: هو تميم المعنى، وهو المراد هنا، ويجيء
للمبالغة والاحتراس. ويجيء في المقاطع والحشو، وأكثر مجيئه في الحشو.
ومن أمثلة مجيئه للاحتراس قول الله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو
أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾.

(١) نقد الشعر لقدامة ص ٩٨.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٣٨٩.

فقوله: ﴿من ذكر أو أنسى﴾ تسميم وقوله ﴿وهو مؤمن﴾ تسميم
ثان في غاية البلاغة، فبذكر هذين التسميمين تم معنى الكلام وجري على
الصحة. ولو حذف أحدهما أو كلاهما لنقص معنى الكلام واختل حسن
البناء.

ومنه قول الرسول عليه السلام: «ما من مسلم يصلي لله كل يوم
اثنتي عشرة ركعة من غير الفرائض إلا بنى الله له بيتاً في الجنة».

ففي هذا الحديث وقع التسميم في أربعة مواضع هي: قوله «مسلم»
وقوله «الله» وقوله «كل يوم» وقوله «من غير الفرائض». فحذف أي من
هذه التسميمات ينقص من معنى الحديث الشريف ويقلل من قيمته
البلاغية.

ومما ورد فيه التسميم المحذوري كاحتباس من النثر قول أعرابية:
«كبت الله كل عدو لك إلا نفسك» فقيل لها: «نفسك» تم الدعاء؛ لأن
نفس الإنسان تحري مجرى الحيلة، أي بعض أفعالها تورطه وتدعوه إلى ما يورثه
ويهلكه.

ومن أمثله شعراً قول عمرو بن براق:

فلا تأمن الدهر حراً ظلمته فما ليل مظلوم كريم بنائم
فقوله: «كريم» تسميم؛ لأن اللثيم يغضي على العار، وينام عن
الثأر، ولا يكون منه دون المظالم تكبر.

ومنه أيضاً قول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي
فقوله: «غير مفسدها إتمام للمعنى بالاحتباس والتحرز».

ومثال ما جاء منه للمبالغة قول زهير بن أبي سلمى :

من يلق يوماً على علاقته هرمًا يلق السماحة منه والندی طرقة
فقوله : «على علاقته» تميم للمبالغة .

ومن أبلغ ما ورد من التميم للمبالغة قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ
الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ فقوله : ﴿ على حبه ﴾ تميم
للمبالغة التي تعجز عنها قدرة المخلوقين .

٢ - والتميم اللفظي : يقصد به التميم الذي يؤتى به لإقامة
الوزن ، بحيث أنه لو طرحت الكلمة استقل معنى البيت بدونها . وهذا
النوع على ضربين أيضاً : كلمة لا يفيد مجيئها إلا إقامة الوزن ، وأخرى
تفيد مع إقامة الوزن ضرباً من المحاسن ، فالأولى من العيوب ، والثانية من
النعوت والمحاسن .

والتميم في الألفاظ الذي يفيد مع إقامة الوزن ضرباً من البديع هو
المراد هنا ، ومثاله قول المتنبي : *تكميز غنوم أسدي*
وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لظننت فيه جهنما
فإنه جاء بقوله : «يا جنتي» لإقامة الوزن ، ولكنها في الوقت ذاته
أفادت تميم المطابقة بين «الجنة» و«جهنم» .

• • •

لقد ذكرنا فيما سبق أن قدامة هو أول من أطلق اسم «التميم» على
هذا النوع من البديع المعنوي ، وأن أبا هلال العسكري استحسن هذه
التسمية فاعتمدها وأضاف إليها «التكميل» .

وقد جرى بعض البلاغيين أبا هلال في تسميته لهذا الفن البديعي ،

وخلطوا التكميل بالتميم، ولكن المتأخرين من أصحاب البديع عادوا بهذا الفن إلى تسمية قدامة له، وذلك لما لحظوه من فرق بين الأمرين.

فالتميم عندهم يرد على المعنى الناقص فيتمه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ الكمال أمر زائد على التمام. والتمام أيضاً يكون متمماً لمعاني النقص لا لأغراض الشعر ومقاصده، والتكميل يكملها.

وليزيد من الإيضاح نورد هنا مثلاً للتكميل وهو لكثير عزة:

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها

فقوله: «عند موفق» تكميل حسن، فإنه لو قال: «عند محكم» لثم المعنى، لكن في قوله: «عند موفق» زيادة تكميل بها حسن البيت، والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الخلو في النفس ما ليس للأولى، إذ ليس كل محكم موفقاً، فإن الموقع من الحكم من قضى بالحق لأهله.

ونجدر الإشارة بعد دراستنا لكل من التميم والإيغال إلى أن هناك farkاً بينهما. فالتميم كما ذكرنا يرد على المعنى الناقص فيتمه، على حين يرد الإيغال على المعنى التام لختم الكلام شعراً أو نثراً مسجوعاً بما يعطيه قافيته، ويفيد في الوقت ذاته فائدة يتم المعنى بدونها كالمبالغة مثلاً.

ولبيان أثر التميم في تحسين المعنى وصحته وبلاغته نقارن هنا بين بيتين لطرفة بن العبد وذو الرمة في معنى واحد. فطرفة في دعائه لديار صاحبه بالسقيا يقول:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهي

فقوله: «غير مفسدها» فيه إتمام للمعنى بما يفيد أنه يدعو لديار صاحبه بأن يسقيها الغيث أو المطر بالقدر المطلوب، لا بالقدر الذي يزيد

عن حاجتها فيصيبها بالتلف والإفاد. فهذا التميم بالاحتراس من
البديع حقاً.

أما ذو الرمة ففي دعائه بالسقيا لدار صاحبه يقول:

ألا يا أسلمي يا دار مَيَّ على البلى ولا زال منهالاً بجرعائك القطر^(١)
فدو الرمة يدعو لدار صاحبه مَيَّ بالسلامة وبأن يظل المطر ينهل
وينصب على جرعائها انصباباً شديداً. وهذا بالدعاء على دار صاحبه أشبه
منه بالدعاء لها، لأن القطر إذا أنهل فيها دائماً فسدت. وهذا
العيب ناشئ من أن الشاعر لم يشم معناه، ولم يتحرّز فيه كما فعل طرفة في
بيته.

التورية

التورية من فنون البديع المصنوعة ويقال لها أيضاً: الإيهام والتوجيه
والتخيير، ولكن لفظة التورية أصلها في التسمية لقربها من مطابقة
المسمى، لأنها مصدر ورى بتضعيف الراء تورية، يقال: ورّيت الخبير:
جعلته ورّائي ومسترته وأظهرت غيره، كأن المتكلم يجعله ورّاه بحيث لا
يظهر.

والتورية في اصطلاح رجال البديع: هي أن يذكر المتكلم لفظاً
مفرداً له معنيان، قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد.
ونحن نجد لها أكثر من تعريف لدى المتأخرين، ولكن هذه

(١) الجرعاء والأجرع: الأرض ذات الحزونة تشكل الرمل، وقيل: هي الرملة السهلة
المستوية لا تثبت شيئاً، والقطر: المطر.

التعريفات وإن اختلفت لفظاً فإنها تتفق معنى، ولا تخرج جميعها في مضمونها عن مضمون التعريف السابق الذي اصطلح عليه جمهور البديعيين.

فزكي الدين بن أبي الأصبع (٦٥٤ هـ) قد عرفها في كتابه المسمى «تحرير التحبير» بقوله: «التورية وتسمى التوجيه هي أن يكون الكلام يحتمل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتمالها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله».

والخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) يعرفها في كتابه التلخيص بقوله: «ومن البديع التورية وتسمى الإيهام أيضاً، وهي أن يُطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، وهي خبرتان مجردة ومرشحة» ولم يزد على هذا القدر شيئاً.

وصلاح الدين الصفدي (٧٩٤ هـ) يعرفها في كتابه «فض الحتام عن التورية والاستخدام» بقوله: «التورية هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين، قريب وبعيد، فيذكر لفظاً يوهم القريب إلى أن يحىء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد».


ونقي الدين بن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) يعرفها في كتابه «خزانة الأدب» بقوله: «التورية أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويورى عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً»^(١).

(١) انظر في كل هذه التعريفات كتاب خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٢٣٩ - ٢٤٢.

ومن أمثلة التورية قول سراج الدين الوراق^(١):

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافي به هم «حبيب»
فالتورية في لفظة «حبيب»، ولها معنيان: أحدهما المحبوب، وهذا
هو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن أول وهلة بسبب التمهيد له
بكلمة «بغيض»، والمعنى الثاني اسم أبي تمام الشاعر وهو حبيب بن أوس،
وهذا هو المعنى البعيد الذي أراده الشاعر ولكنه تلطف فورى عنه وسره
بالمعنى القريب.

ومن أمثلتها أيضاً قول بدر الدين الدهبي:

يا عاذلي فيه قل لي إذا بدا كيف أسلو؟
بمر بي كل  وكلما «مر» يحلو
فالتورية هنا كلمة «مر»، فإنها معنيين: أحدهما أنها مأخوذة من
المرارة وهو المعنى القريب ~~الذي يتبادر إلى الذهن~~ ^{الذي يتبادر إلى الذهن} بكلمة «يحلو»، وهذا المعنى
القريب الظاهر غير مراد، والمعنى الثاني أنها مأخوذة من المرور، وهذا هو
المعنى البعيد الذي يريده الشاعر.

ومنها كذلك قول بدر الدين الحنامي:

جودوا لنجع بالمديد ح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما تغرد عندما يقع الندي^(٢)
فالتورية هنا في كلمة «الندي»، فمعناها القريب الظاهر غير المراد

(١) شاعر مصري أُلِّقَ بالبدیع فی شعره وتوفي سنة ٦٥٩ هـ.

(٢) من معاني الندي: الجود، وما يسقط آخر الليل من بلل ومطر خفيف.

هو ما يسقط آخر الليل من بلل ومطر خفيف، بدليل التمهيد له بذكر الطير والتغريد والوقوع، ومعناها البعيد هو الجود وهذا هو الذي أراد الشاعر.

وقوله أيضاً:

أبيات شعرك كالقصر سور ولا قصور بها يعوق
ومن العجائب لفظها حرٌّ ومعناها «رقيق»

والتورية في هذا المثال هي كلمة «رقيق» ولها معنيان: أولهما قريب ظاهر غير مراد، وهو العبد المملوك، وسبب قربه وتبادره إلى الذهن ما سبقه من كلمة «حر»، والمعنى الثاني بعيد وهو اللطيف السهل التمث من المعاني. وهذا هو الذي يريد الشاعر بعد أن ستره وأخفاه في ظل المعنى القريب.

ومما ورد منها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالظلمات﴾ (١) فلفظة «التوريات» في الآية الكريمة هي ﴿جرحتم﴾ ولها معنيان: أولهما قريب ظاهر غير مراد وهو إحداث تمزق في الجسم، والثاني بعيد خفي مراد وهو ارتكاب الذنوب واقترافها.

ومن الأمثلة السابقة تتضح حقيقة التورية وأنها تتمثل دائماً في لفظ مفرد له معنيان: قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد.

ومن الأمثلة السابقة تتضح حقيقة التورية، وأن القصد من لفظ التورية أن يكون مشتركاً بين معنيين: أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد

(١) جرحتم: أصل معنى الجرح إحداث تمزق في الجسم، ولهذا سميت السباع جوارح لأنها تمزج.

ويؤى عنه بالمعنى القريب، فيوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك. ولهذا سمي هذا النوع إيهاماً.

• • •

أنواع التورية:

والتورية أربعة أنواع: مجردة، ومرشحة، ومبيّنة، ومهيّئة.

١ - التورية المجردة: وهي التي لم يذكر فيها لازم من لوازم المؤرى به، وهو المعنى القريب، ولا من لوازم المؤرى عنه، وهو المعنى البعيد.

وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فكلمة التورية هي ﴿استوى﴾ والاستواء، كما يقول الزمخشري، على معنيين: أحدهما الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المؤرى به غير المقصود، والثاني الاستواء والملك، وهو المعنى البعيد المؤرى عنه، وهو المراد، لأن الحق سبحانه عزه عن المعنى الأول. ولم يذكر من لوازم هذا أو ذاك شيء ~~في التورية~~ ~~موجباً للاعتبار~~.

ومن هذا النوع قول النبي ﷺ في خروجه إلى بدر، وقد قيل له: عن أنتم؟ فلم يُرد أن يعلم السائل، فقال: «من ماء»، وأراد: أنا مخلوقون من ماء. فؤرى عنه بقبيلة من العرب يقال لها: ماء.

ومن ذلك قول أبي بكر الصديق في الهجرة عندما سأله سائل عن النبي قائلًا: «من هذا؟» فقال أبو بكر: «هاد يهديني». أراد أبو بكر هو هاد يهديني إلى الإسلام فؤرى عنه بهادي الطريق الذي هو الدليل في السفر.

ومنه شعراً قول القاضي عياض في سنة كان فيها شهر كانون معتدلاً
فأزهرت فيه الأرض:

كان نيان أهدي من ملابسه لشهر كانون أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدي والحمل^(١)
فالتورية هنا مجردة، والشاهد في الغزالة والجدي والحمل، فإن
الشاعر لم يذكر قبل الغزالة ولا بعدها شيئاً من لوازم المورى به،
كالأوصاف المختصة بالغزالة الوحشية من طول العنق، وسرعة الالتفات،
وسرعة النفرة، وسواد العين، ولا من أوصاف المورى عنه كالأوصاف
المختصة بالغزالة الشمسية من الإشراق والسمو والطلوع والغروب.

٢- والتورية المرشحة: هي التي يذكر فيها لازم المورى به، وهو
المعنى القريب، وسميت مرشحة لتقويتها بذكر لازم المورى به. ثم تارة
يذكر اللازم قبل لفظ التورية وتارة بعده، فهي بهذا الاعتبار قسمان:

أ- فالقسم الأول منها: هو ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية. وأعظم
أمثله قوله تعالى: ﴿والسما سبحانها عظيم﴾ فإن قوله: ﴿بأيدي﴾ يحتمل
اليد الخارجة، وهذا هو المعنى القريب المورى به، وقد ذكر من لوازمه على
جهة الترشيح «البنيان»، ويحتمل القوة وعظمة الخالق، وهذا هو المعنى
البعيد المورى عنه، وهو المراد لأن الله سبحانه منزّه عن المعنى الأول.

ومنه قول يحيى بن منصور من شعراء الحماسة:

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كريمة ولا نحن أغضينا الجفون على وقر
فالشاهد لفظة «الجفون» فإنها تحتمل جفون العين، وهذا هو المعنى
القريب المورى به، وقد تقدم لازم من لوازمه على جهة الترشيح وهو

(١) من معاني الغزالة: الشمس.

«الإغضاء» لأنه من لوازم العين، وتحتل أن تكون جفون السيوف أي أغمادها، وهذا هو المعنى البعيد المراد المورى عنه.

ب - والقسم الثاني: هو ما ذكر لازم المورى به بعد لفظ التورية. ومن أمثله اللطيفة قول الشاعر:

مذ همت من وجدي في خالها ولم أصل منه إلى اللشم^(١)
قالت: قفوا واستمعوا ما جرى خالي قد هام به عمي!

فلفظة التورية هنا «خالها» فإنها تحتل خال النسب وهو المعنى القريب المورى به وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية على جهة الترشيح وهو «العم»، وتحتل أن تكون الشامة السوداء التي تظهر غالباً في الوجه وتكون علامة حسن، وهذا هو المعنى البعيد الخفي المورى عنه.

٣ - التورية المبينة: وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه قبل لفظ التورية أو بعده. فهي بهذا الاعتبار قسمان:

أ - فالقسم الأول: هو ما ذكر لازم المورى عنه قبل لفظ التورية، واستشهدوا عليه بقول البحري:

وراء تسدية الوشاح ملية بالحسن تملح في القلوب وتعذب

فالشاهد هنا في «تملح» فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي صد العذوبة، وهذا هو المعنى القريب المورى به وغير المراد، ويحتمل أن يكون من الملاحة التي هي عبارة عن الحسن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد. وقد تقدم من لوازمه على التبيين «ملية بالحسن».

(١) من معاني الخال: خال النسب وهو أخو الأم، والخال الذي يكون في الجسد، وهو شامة أو نقطة سوداء في البدن، وأكثر ما يكون في الوجه، وهو علامة حسن وإن لم يكن هو حناً في ذاته.

ومن أحسن الشواهد على هذا القسم قول شرف الدين بن عبد العزيز:

قالوا: أما في جلتِ نزهة تنسيك من أنت به مُغسرى
يا هاذلي دونك من لحظة سهياً ومن عارضه سطرأ

الشاهد هنا في موضعين وهما «السهم وسطرأ» فإن المعنى البعيد هما الموضعان المشهوران بمتنزهات دمشق، وذكر النزهة بجُلَّتْ قبلهما هو المين لهما، وأما المعنى القريب غير المراد فسهى اللحظ وسطر العارض.

ب- والقسم الثاني، من التورية المبينة: هو الذي ذكر فيه لازم المورى عنه بعد لفظ التورية. ومن أمثلته البديعة قول الشاعر:

أرى ذنب السرحان في الأفق طالما فهل يمكن أن الغزالة تطلع؟
فالييت فيه توريتان إحداهما ذنب السرحان، فإنه يحتمل أول ضوء النهار، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مراد الشاعر، وقد بينه بذكر لازمه بعده بقوله: «طالما»، ويحتمل ذنب الحيوان المعروف وهو الذئب أو الأسد، وهذا هو المعنى القريب المورى به والتورية الثانية في «الغزالة» فإنه يحتمل أن يكون المراد بها الشمس، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، وهو مقصود الشاعر وقد بينه بذكر لازمه بعده بقوله: «تطلع». ويحتمل أن يكون المراد بها الغزالة الوحشية المعروفة، وهذا هو المعنى القريب المورى به والذي لم يقصده الشاعر.

٤- التورية المهيأة: وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تنهياً إلا باللفظ الذي قبلها، أو باللفظ الذي بعدها، أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تنهيات التورية في الآخر. فالمهيأة على هذا الاعتبار ثلاثة أقسام.

أ- فالقسم الأول من التورية المهيأة: هو الذي تنهياً فيه التورية من قبل. واستشهدوا على ذلك بقول ابن سناء الملك يمدح الملك المظفر صاحب حماة:

وسيرك فينا سيرة عمرية فروحت عن قلب وأفرجت عن كرب
وأظهرت فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك النذب
فالشاهد هنا في «الفرض والنذب» وهما يحتملان أن يكونا من الأحكام الشرعية، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى العطاء والنذب صفة الرجل السريع في قضاء الخوائج الماضي في الأمور، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه. ولولا ذكر «السنة» لما تنهيات التورية فيهما ولا فهم من الفرض والنذب الحكمان الشرعيان اللذان صحت بهما التورية.

ب- والقسم الثاني من التورية المهيأة: هو الذي تنهياً فيه التورية بلفظة من بعده. ومن أمثلته نثراً قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الأشعث بن قيس: «إني كنت بجحوك والشمال»^(١) باليمين، فالشمال يحتمل أن يكون جمع شملة وهي الكساء يشتمل به، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل أن يراد بها الشمال التي هي إحدى اليدين ونقيض اليمين، وهذا هو المعنى القريب المورى به. ولولا ذكر اليمين بعد الشمال لما تنبه السامع لمعنى اليد.

ومن هذا النوع من التورية المهيأة شعراً قول الشاعر:

لولا التطير بالخللاف وأنهم قالوا: مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نحبي في جنابك خدمة لاكون «مندوباً» قضى مفروضاً

(١) الشمال: جمع شملة، وهي كساء يشتمل ويتلفع به.

«فالمندوب» هنا يحتمل الميت الذي يُبكى عليه، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد، ويحتمل أن يكون أحداً لأحكام الشرعية، وهو المعنى القريب المورى به. ولولا ذكر «المفروض» بعده لم ينتبه السامع لمعنى المندوب، ولكنه لما ذكر تهيأت التورية بذكره.

ج - والقسم الثالث من التورية المهيأة: هو الذي تقع التورية فيه في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت التورية في الآخر. واستشهدوا على ذلك بقول عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان^(١)

وموضع الشاهد هنا هو «الثريا وسهيل»، فإن «الثريا» يحتمل أن يكون الشاعر أراد بها بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد، ويحتمل أن يكون أراد بها نجم الثريا، وهذا هو المعنى القريب المورى به. و«سهيل» يحتمل أيضاً أن يكون سهيل بن عبد الرحمن بن عوف وسهيل كان رجلاً مشهوراً من اليمن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل أن يكون النجم المعروف بسهيل، وهذا هو المعنى القريب المورى به. ولولا ذكر «الثريا» التي هي النجم لم ينتبه السامع لسهيل، وكل واحد منها صالح للتورية.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أن التورية هنا لا تصلح أن تكون مرشحة ولا مبيّنة؛ لأن الترشيح والتبيين لا يكون كل منهما إلا بلازم

(١) سبب نظم البيتين أن سهيلاً المذكور تزوج ثريا المذكورة، وكان بينهما بن شامع فالثريا مشهورة في زمانها بالجمال وسهيل مشهور بالعكس. وهذا مراد الناظم بقوله: «كيف يلتقيان؟»، وأيضاً هي شامية الدار وسهيل يمان.

خاص. والفرق بين اللفظ الذي تتهيا به التورية، واللفظ الذي تترشح به، واللفظ الذي تتبين به. أن اللفظ الذي تقع به التورية مهياة لو لم يذكر لما تهيات التورية أصلاً، وأن اللفظ المرشح واللفظ المين إغماهما مقويان للتورية، فلو لم يذكر لكانت التورية موجودة.



والتورية التي هي نوع من البديع المعنوي لم يتنبه لمحاسنها إلا المتأخرون من حذاق الشعر وأعيان الكتاب. وهؤلاء نظروا إليها على أنها من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، ولهذا نرى الكثيرين جداً من شعراء مصر والشام خاصة في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة يتوسعون ويفتنون في استعمالها، ويأتون فيها بالعجيب الرائع الذي يدل على صفاء الطبع والقدرة على التلاعب في مماليب الكلام.

والقاضي الفاضل^(١) ٥٩٩ هـ يعد أول من فتح باب التورية لأهل عصره ومن بعدهم بما أودع منها في نظمته ونثره. وقد تأثر به في الولع بالتورية كثيرون من شعراء مصر من أمثال ابن سناء الملك، والسراج، والوراق، والجزار، والحمامي، وابن دانيال، وعلمي الدين بن عبد الظاهر، وجمال الدين بن نباته، وصلاح الدين الصفدي.

ومن اشتهر بالتوسع في استعمال التورية من شعراء الشام شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، وعجير الدين بن تميم، ويدر الدين يوسف الذهبي، وعلمي الدين الحموي، وشمس الدين بن العفيف، وعلاء الدين

(١) هو عبد الرحيم بن علي وزير السلطان صلاح الدين، اشتهر بالقاضي الفاضل، وهو من أئمة الإنشاء وتعرف طريقته في الكتابة بالطريقة الفاضلية وقد تأثر بها وقلدها من جاء بعده من النشئين.

الكندي الشهير بالوداعي، والذي يقال: إنه أشهر من «قنانك» في نظم التورية!

ولعل تقي الدين بن حجة الحموي من أكثر رجال البديع المتأخرين اهتماماً بالتورية. نقول ذلك لأن ما استشهد به عليها من شعر شعراء البديع بمصر والشام من عصر القاضي الفاضل إلى عصره يمثل في الواقع ربع كتابه «خزانة الأدب» الذي يشتمل على ٤٦٧ صفحة.

وهو ينبئنا عن سبب اهتمامه بالتورية إلى هذا الحد بأنه كان ينوي بعد الفراغ من تأليف «خزانة الأدب» أن يؤلف كتاباً خاصاً بالتورية والاستخدام بسميه «كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام»^(١).



وإذا ألقينا نظرة على نشأة هذا النوع من البديع المعنوي فإننا نرى أن المتقدمين لم يحفلوا كثيراً بالتورية. وإنما المرء ليحس فيها يلقاه منها في أدبهم أنها كانت تقع لهم عفوفاً من غير قصد.

ويقال إن المتنبي هو أول من لفت إليها واستخدمها في شعره على نحو ظاهر، ولكن التحقيق يظهر أن شعراء البديع في العصر العباسي الأول والثاني من أمثال أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحري قد سبقوه إليها.

ثم أخذ الاهتمام بها ابتداء من عصر المتنبي يزداد شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى عصر القاضي الفاضل فتلقفها وتوسع في استعمالها في شعره ونثره إلى الحد الذي لفت الأنظار إليها. ومن ثم جازاه فيها شعراء مصر

(١) خزانة الأدب ص ٢٧٧.

والشام خاصة في عصره وبعد عصره، وقد أدى الإعجاب بها والمبالغة في استعمالها والإكثار منها والتكلف فيها إلى إفساد الكثير من شعر المتأخرين وإحالاته إلى رياضة ذهنية وحيل لفظية ينطبق عليها قول القائل:

وما مثله إلا كفارغ بنسق خلل من المعنى ولكن يفترقع!

التقسيم

التقسيم فن من فنون البديع المعنوي، وهو في اللغة مصدر قسمت الشيء إذا جزأته. أما في الاصطلاح فاختلفت فيه العبارات، والكل راجع إلى مقصود واحد.

ومن أوائل من عرض له أبو هلال العسكري وفسره بقوله:

«التقسيم الصحيح: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جسد من أجناسه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يرىكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ وهذا أحسن تقسيم لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطمع، ليس فيهم ثالث»^(١) وقد قدم الخوف على الطمع لأن الأمر المخوف من البرق يقع في أول برقه، والأمر المطمع إنما يقع من البرق بعد الأمر المخوف. وذلك ليكون الطمع ناسخاً للخوف، لمجيء الفرج بعد الشدة.

وذكر ابن رشيق القيرواني أن الناس مختلفون فيه: «فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدا به، كقول بشار يصف هزيمة: بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه فراحوا: فريق في الأسار، ومثله قتيل، ومثل لاذ بالبحر هاربه

(١) كتاب المناهتين ص ٢٤١.

فالبیت الأول قسمان: إما موت، وإما حياة تورث عاراً ومثلبة،
والبيت الثاني ثلاثة أقسام: أسير، وقتيل، وهارب، فاستقصى جميع
الأقسام، ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكره^(١).

وعرفه الخطيب القزويني في كتابه التلخيص بقوله: «والتقسيم ذكر
متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعمين، كقول المتلمس:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يُشجّ فلا يرثي له أحد^(٢)

فقد ذكر الشاعر العبر والوتد، ثم أضاف إلى الأول الربط مع
الخسف، وإلى الثاني الشج على التعمين.

وقبله عرفه السكاكي بقوله: «هو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر
ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك، كقوله:

أديبان في بلخ لا يكتفون ~~إذا طعنا~~ ^{إذا طعنا} المرء غير الكبد
فهذا طويل كظل القناة وهذا قصير كظل الودد^(٣)

كذلك عرفه زكي الدين بن أبي الأصبع بقوله: «والتقسيم عبارة عن
استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه»^(٤) وقد مثل لتعريفه بقوله

(١) كتاب العملة ج ٢ ص ٢٠.

(٢) كتاب التلخيص للقزويني ص ٣٦٤، والضيم: الظلم، والعبر: الحمار فلب على
الوحش، والمناسب هنا الحمار الأهلي، والخسف: الذل، الرمة: القطعة من الخبل،
والشج: الدق والكسر.

(٣) خزنة الأدب ص ٣٦٢.

(٤) خزنة الأدب ص ٣٦٢.

تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾، فاستوفت الآية الكريمة جميع الهيئات الممكنة.

وكذلك بقوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾، فاستوفت الآية الكريمة جميع الأقسام التي يمكن وجودها؛ فإن العالم جميعه لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة.

وبقوله تعالى أيضاً: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾، فالآية الشريفة جامعة لأقسام الزمان الثلاثة ولا رابع لها، والمراد الحال والماضي والمستقبل. فله ما بين أيدينا المراد به المستقبل، وما خلفنا المراد به الماضي، وما بين ذلك الحال.

وما ينطبق على تعريف ابن أبي الأصبع وهو من أشرف المشور قوله ﷺ: «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت، وألبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت» فلم يبق الرسول قسماً رابعاً لو طلب لوجد.

وقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عن من شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره». فالإمام علي قد استوعب هنا أقسام الدرجات وأقسام أحوال الإنسان بين الفضل والكفاف والنقص.

ومنه أن شاباً قدم مع بعض وفود العرب على عمر بن عبد العزيز ثم قام وتقدم المجلس قائلاً: «يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم^(١)»، وفي أيديكم فضول

(١) أنقت العظم: استخرجت نفوه بكر النون، أي نحه.

أموال؛ فإن كانت لنا لا نمنعونا، وإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لكم فتصدقوا. إن الله يجزي المتصدقين». فقال عمر بن عبد العزيز: «ما ترك لنا الأعرابي في واحدة عذراً».



ومن التعريفات والأمثلة السابقة يمكن القول بأن التقسيم يطلق على أمور:

أحدها: استيفاء جميع أقسام المعنى، وقد ينقسم المعنى إلى اثنين لا ثالث لهما، أو إلى ثلاثة لا رابع لها، أو إلى أربعة لا خامس لها، وهكذا.. ومن تقسيم المعنى إلى اثنين لا ثالث لهما بالإضافة إلى بعض الأمثلة السابقة قول ثابت البناني: «الحمد لله وأستغفر الله»، ولما سئل: لم خصهما؟ قال: لأن بين نعمة ونسيب فالحمد لله على النعمة، وأستغفره من الذنوب.

ومنه قول الشماخ ~~يقسمه~~ ~~بثلاثة~~ ~~منازل~~ الحمار:

مضى ما تقع أرساغه مطمئنة على حجر يرفض أو يتدحرج^(١)
فالوطء الشديد إذا صادف الموطوء رخواً ارفض وتفرق منه، أو صلباً تدحرج عنه، ولهذا لم يبق الشماخ قسماً ثالثاً.

ومن تقسيم المعنى إلى ثلاثة لا رابع لها قول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء^(٢)

(١) مطمئنة: ساكنة، ويرفض: يضرق، والأرساغ: جمع رسخ وهو من الدواب الموضع المستلق بين الخافر.

(٢) النفار: المنافرة والتحاكم، والجلاء: البينة التي تجلو وتكشف حقيقة الأمر.

فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء
وكان عمر رضي الله عنه يتعجب من صحة هذا التقسيم ويقول:
«لو أدركت زهيراً لوليت له القضاء لعرفته».

ومنه قول نُصَيْب:

فقال فريق القوم: لا، وفريقهم: نعم، وفريق قال: ويحك ما ندري
فليس في أقسام الإجابة عن المطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام
الثلاثة.

وقول عمر بن أبي ربيعة:

وهبها كشيء لم يكن أو كخارج به الدار أو من غيته المقابر
فلم يُبق ابن ربيعة ما لا يجوز من إنسان مفقود قسماً إلا أن به في
هذا البيت.

مركز تحقيق التراث
مكتبة جامعة القاهرة

وقول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم
فالبیت جامع لأقسام الزمان الثلاثة ولا رابع لها.

• • •

والأمر الثاني الذي قد يطلق التقسيم عليه يتمثل في ذكر أحوال
الشيء مضافاً إلى كل حالة ما يلائمها ويليق بها. ومن أمثلة ذلك قول أبي
الطيب المتنبي:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ. كأنهم من طول ما الثموا مرد

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عُدوا^(١)
 فالشاعر قد أضاف هنا كل حال ما يلائمها، بأن أضاف إلى الثقل
 حال ملاقاتهم الأعداء، وإلى الخفة حال دعوتهم إلى الحرب، وإلى الكثرة
 حال شدتهم وهجومهم على الأعداء في الحرب، وإلى القلة حال عددهم
 وإحصائهم، لأنهم إذا غلبوا أعداءهم في قلة عددهم، كان هذا أفخر لهم
 من الكثرة.

ومنه قول زهير:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
 فزهير قد أتى في هذا البيت بجميع ما استعمله الممدوح مع أعدائه
 في وقت الهياج والحرب مضيفاً إلى كل حال ما يلائمها، وذلك بأن أضاف
 إلى طعن الممدوح لأعدائه حالة إرغائهم، وإلى ضربه إياهم حالة طعنهم،
 وإلى اعتناقه حالة مضاربتهم فهو في كل حال يتقدم خطوة على أقرانه.

ومنه قول طريح التميمي بشعره:

إن يستمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا شراً أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا
 فهنا أضاف الشاعر إلى سماع الخير حالة إخفائه، وإلى سماع الشر
 حالة إذاعته، وإلى عدم سماعهم خيراً أو شراً حالة الكذب.

والأمر الثالث الذي قد يطلق التقسيم عليه يتمثل في التقطيع،
 ويقصد به تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر إلى أقسام تمثل تفعيلاته

(١) القنا: الرماح، كنى بها الشاعر عن نفسه، وبالشايخ عن أصحابه، لا يفارقهم اللثام ولا
 ترى لحاهم فكانهم مرد. واللثام في الحرب عادة العرب، لكلا تسقط عمائمهم.

العروضية، أو إلى مقاطع متساوية في الوزن. ويسمى التقسيم حينئذٍ «التقسيم بالتقطيع».

ومن أمثلة ذلك وهو من بحر الطويل قول المتنبي:
فيا شوق ما أبقي وبالي من النوى ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبا
فقد جاء المتنبي بهذا البيت مقسماً على تقطيع الوزن، كل لفظتين
ربع بيت.

ومنه وهو من بحر البسيط قول المتنبي أيضاً:
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
فقد جاء البيت مقسماً مقطعاً إلى أربعة مقاطع متساوية في الوزن.

ومنه وهو من بحر الخفيف قول البحتري:
قف مشوقاً أو مسعداً أو حزيناً أو معيناً أو عاذراً أو عدولاً
فالبيت هنا مقسم ~~على~~ ^{على} مقاطع كل واحد منها يمثل تفعيلة
من تفعيلات بحر الخفيف.

وقد يجيء التقسيم بالتقطيع مسجوعاً، كقول مسلم بن الوليد:
كأنه قمر أو ضيفم هصر أو حية ذكر أو عارض هطل
وكقول أبي تمام من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر فتح عمورية:
لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له المنية بين السمر والقضب^(١)
تدبير معتصم بالله متقم... لله مرتقب في الله مرتغب

(١) السمر: الرماح، والقضب: السيوف، وعمورية إحدى مدن الروم الشهيرة وكانت
عندهم أشرف من القسطنطينية، وقد فتحها المعتصم في معركة شهيرة.

فالبیت الثاني هنا فيه تقسيم بالتقطيع المسجوع. وقد أطلق قدامة على هذا النوع اسم «الترصيع»، وفضله، وأطنب كثيراً في وصفه. والقدماء لم يكثرُوا من هذا النوع كراهة التكلف، وما ورد عندهم منه قول أبي المثلّم في الرثاء:

هباط أودية حمال ألوية شهاد أندية سرحان فتيان
يعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه من التلاد وهوب غير منان^(١)
فالتقسيم بالتقطيع المسجوع هو هنا في البيت الأول كما يرى.

ومن التقسيم نوع يقال له «تقسيم الضد» ويكون بجعل كل شيء ضده، كقول العباس بن الأحنف:

وصالكمو صرم، وحبكمو قل، وعطفكمو صد، وسلمكمو حرب

حكى الصوري أن محمد بن موسى المنجم كان يحب التقسيم في الشعر وكان معجباً ببيت العباس بن الأحنف هذا ويقول: «أحسن والله فيما قسم حين جعل كل شيء ضده» والله أن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس^(٢)!

عيوب التقسيم:

والتقسيم إذا استوعب جميع أقسام المعنى أو جميع أحواله فهو التقسيم الصحيح الذي يعد من فنون البديع المعنوي. ولكن التقسيم قد يعتريه بعض أمور تفسده وتنقص من قيمته، ومن ذلك:

١ - عدم استيفاء كل أقسام المعنى، كقول جرير:

(١) السرحان بالكسر: الذئب والأسد، والتلاد والتلبد: كل مال قديم، وخلافه الطارف والطريف.

(٢) كتاب الصناعتين ج ٢ ص ٢٤.

صارت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من موالينا
فهو بعد أن ذكر أنهم أقام ثلاثة ذكر قسمين وسكت عن الثالث،
فالقسم هنا رديئة. قيل: إن جريراً أنشد هذا البيت ورجل من حنيفة
حاضر، فقيل له: من أي قسم أنت؟ فقال: من الثلث الملقى ذكره!
ومن هذا النوع أيضاً قول ابن القربة: «الناس ثلاثة: عاقل،
وأحمق، وفاجر»، فإن القسم هنا رديئة لعدم استيفاء أقسامها، لأن الفاجر
يجوز أن يكون أحمق، ويجوز أن يكون عاقلًا، والعاقل يجوز أن يكون
فاجرًا، وكذلك الأحمق.

٢ - دخول أحد القسمين في الآخر، كقول أمية بن أبي الصلت:
الله نعمتنا تبارك ربنا رب الأنام ورب من يتأبد
فالقسم هنا فاسدة لأن «ربنا» و«يتأبد» داخل في «الأنام».
وكقول الآخر:

لما برحت نومي إليك بطركها وتومض
فالقسمان في البيت متداخلان لأن «نومي وتومض» واحد.
وكقول جميل:

لو كان في قلبي كقدر قلامة حباً وصلتك أو أمتك رسائل
فالبيت يوهم بالتقسيم، ولكنه ليس كذلك لأن إتيان الرسائل داخل
في الوصل.

الالتفات

لعل الأصمعي (٢١٤ هـ) أول من ذكر «الالتفات»، فقد حكى عن

إسحاق الموصلي أنه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف الالتفات جريراً؟ قلت:
وما هو؟ فأنشدني قوله:

أتتسى إذ تود عنا سليماً يعود بشامة؟ سقي الغمام
أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام فذكره فدعا له^(١).

وقد عُدَّ ابن المعتز «الالتفات» من محاسن الكلام وبديعه، فعرفه
ومثل له، بعدة أمثلة من القرآن الكريم والشعر. ففي تعريفه له يقول:
«الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى
المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى
معنى آخر»^(٢).

ثم مثل لانصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، أو بعبارة
أخرى لانصرافه عن الخطاب إلى الغيبة بقوله تعالى: ﴿هو الذي يسيركم
في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها
جاءتها ربيع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾.

فالالتفات في الآية الكريمة هو في قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في
الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾، وعن هذا الالتفات يقول ابن الأثير:
«فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهي أنه ذكر
لفيرهم حالهم ليحجبهم منها كالمخير لهم ويستدعي منهم الإنكار عليهم».

(١) انظر كتاب العملة ج ٢ ص ٤٤، وكتاب الصناعتين ص ٣٩٢، والبشام: شجر ذو
ساق وأنتان وورق ولا ثمر له.

(٢) كتاب البديع ص ٥٨.

ولو أنه قال حتى إذا كتتم في الفلك وجهرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة^(١).

ومثل ابن المعتز كذلك لانصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، أو بعبارة أخرى لانصرافه عن الغيبة إلى الخطاب بقول جرير:

طرب الحمام بندي الأراك فشاقي لا زلت في علل وأيك ناضر^(٢)
فجرير قد أخبر عن الغائب في الشطر الأول وهو «الحمام»، ولكنه في الشطر الثاني انصرف عن الاستمرار في خطاب هذا الغائب والتفت إلى مخاطبته بقوله «لا زلت في علل وأيك ناضر» لزيادة فائدة في المعنى هي الدعاء للحمام.

أما النوع الثالث من الالتفات عند ابن المعتز وهو انصراف المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر فمثل له بقول أبي تمام:

وأنجدتمو من بعد اتهام ياركم فيا جمع أنجدني على ساكني نجد
فالشاعر، وهو المتكلم هنا، يخبر من يخاطبهم بأنه يعلم أنهم قد اتخذوا دارهم في نجد بعد أن كانت في تهامة، ثم ينصرف أو يلتفت بعد ذلك إلى معنى آخر يتمثل في دعاء الدمع ومطالبته بأن يسعفه على ساكني نجد.



وجاء قدامة بن جعفر بعد ابن المعتز فعد «الالتفات» من نعوت

(١) المثل السائر ص ١٧٠.

(٢) العلل بفتح العين واللام: الشرب بعد الشرب تباعاً، والأيك: شجر، الواحدة أيكة، ويقال شجر من الأراك.

المعاني وعرفه بقوله: «الالتفات أن يكون الشاعر أخذاً في معنى فيعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدمه، بمعنى يلتفت إليه بعد فراغه، فلما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه»^(١).

ومن أمثلة ذلك عنده قول المعطل الهذلي:

تبين صلاة الحرب منا ومنهمو إذا ما التقينا والمسلم بادن^(٢)

فقوله: «والمسلم بادن» رجوع عن المعنى الذي قدمه حين بين أن علامة «صلاة الحرب» من غيرهم أن المسلم يكون بادناً والمحارب ضامراً.

ومن أمثلته أيضاً قول الرماح بن ميادة:

فلا صرمة يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يبدو لنا فنكارمه^(٣)

فكأنه يقول: «وفي اليأس راحة» والتفت إلى المعنى لتقدير أن معارضاً يقول له: وما تصنع بصرمة أي هجره؟ فيقول مبنياً على ما يرجوه من انكشاف صرمة وهجره ~~للتفتي إلى اليأس~~، وفي اليأس راحة.

ومن يقارن مفهوم «الالتفات» عند ابن المعتز وقدامة، ثم يتابع مفهومه عند غيرهم من أمثال أبي هلال العسكري، وابن رشيق، وفخر الدين الرازي والسكاكي، يجد أن منهم من يستوحي مفهوم الالتفات عند

(١) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٠٦.

(٢) تبين: تستبين صلاة الحرب بضم الصاد: الذين يفاسون حرها وشذتها وأهوالها جمع صال، مثل: قاض وقضاء.

(٣) الصرمة بفتح الصاد: ضد الوصل وهو الهجر والصد.

ابن المعتز أو قدامة، ومنهم من يخلط بين هذا الفن البديعي والاعتراض.

وخير من عرض لموضوع «الالتفات» في نظرنا هو ضياء الدين ابن الأثير، فقد عالج بوضوح وفهم لأسراره البلاغية، ولهذا آثرنا أن ننقل هنا خلاصة لكلامه عن «الالتفات» نوضح حقيقة ووظيفته البلاغية، ونجنبنا الخلط الكثير الذي وقع فيه غيره من البلاغيين.

يستهل ابن الأثير كلامه، عن هذا الفن من فنون البديع المعنوي ببيان حقيقة فيقول: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهة تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً.

ويسمى أيضاً «شجاعة العربية»، وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»^(١).

أقسام الالتفات

ثم يقسم ابن الأثير الالتفات ثلاثة أقسام هي:

١ - القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

(١) كتاب المثل السائر ص ١٦٧، ويتورد ما لا يتورده سواه: أي يعلو قرنه بما لا يعلوه سواه.

٢ - القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

٣ - القسم الثالث: في الإنجاء عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالفعل الماضي.

وفى يلي خلاصة لكلام ابن الأثير عن كل قسم من هذه الأقسام.



١ - فعن القسم الأول، وهو الخاص بالرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة يورد ابن الأثير أولاً آراء بعض علماء البلاغة في السبب الذي قصدت العرب إليه من وراء استعمال هذا الأسلوب، ثم يعقب عليها برأيه.

فعامة المتعين إلى هذا الفن أن مثلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قولاً كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامهم. وهذا القول من عكاز الحميان كما يقال.

كذلك لم يرتض جواب الزمخشري عن هذا السؤال بأن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه.

وعند ابن الأثير أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته. وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بعد ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها.

فالانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد يكون الغرض منه تعظيم شأن المخاطب، وقد يستعمل ذات الغرض للضد، أي للانتقال من الخطاب

إلى الغيبة، ومن ذلك يفهم أن الغرض الموجب لاستعمال «الالتفات» لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضوع الذي ترد فيه. وفي الأمثلة التالية توضيح ذلك.

أ- فمن الالتفات بالرجوع والعدول عن الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذا﴾^(١). وإنما قيل: ﴿لقد جئتم﴾ وهو خطاب للحاضر بعد قوله ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً﴾ وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل على قائل هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم وموبخاً لهم.

ومن هذا النوع أيضاً، أي من الالتفات بالرجوع أو العدول عن الغيبة إلى الخطاب قول القاضي الأرجلي:

وهل هي إلا مهجة يطليونها؟ فإن أرضت الأحباب فهي لهم قدي إذا رمتو قتلي وأنتم أصبى فماذا الذي أخشى إذا كتمو عدي؟

فالبيت الثاني قد جاء وهو خطاب للحاضر بعد البيت الأول وهو خطاب للغائب. فالغرض البلاغي من وراء الالتفات بالعدول عن الاستمرار في الإخبار عن الغائب إلى مخاطبته هو تمثيل أحبابه الغائبين في البيت الأول كأنهم حاضرون أمامه ليقرعهم ويلومهم على عدم معاملته بالمثل، وذلك بالمقابلة بين مشاعرهم نحوه: هو على أتم استعداد لأن يقدمهم بمهجته إن أرضاهم ذلك، وهم يرومون قتله بالتمادي في هجرانه

(١) الإذ بكسر الهمزة وتشديد الدال: الأمر الفظيع للنكر، وأده الأمر بتشديد الدال: أثقله وعظم عليه.

والإعراض عنه كما لو كان عدواً لهم.



ومما ينخرط في هذا السلك الالتفات بالرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس، كقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

فالآية مثال للالتفات بالعدول عن الغيبة إلى خطاب النفس، فإنه قال ﴿وزينا﴾ بعد قوله ﴿ثم استوى﴾ وقوله ﴿فقضاهن﴾ - وأوحى ﴿. والفائدة في ذلك أن طائفة من الناس غير المشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في سماء الدنيا، وإنما ليست حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس لأنه مهمة من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه.

مركز بحث كليات الشريعة الإسلامية

ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن مخاطبة النفس إلى مخاطبة الجماعة، قوله تعالى: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾. وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم، لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويدارهم لأن ذلك أدخل في إمحاض النصيح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه. وقد وضع قوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ مكان قوله ﴿وما لكم لا تعبدون الذي فطركم﴾ بدليل قوله ﴿إليه ترجعون﴾. ولولا أنه قصد ذلك لقال «الذي فطرني وإليه أرجع».



ب- ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَأْمَنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

فإنه إنما قال: ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ولم يقل: ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَيَّ قَوْلُهُ ﴾: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه. وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وبكلماته كائناً من كان أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة وبعداً من التعصب. فقرر أولاً في صدر الآية أن رسول الله إلى الناس، ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين: الأول منها إجراء تلك الصفات عليه، والثاني الخروج من تهمة التعصب.

ومن هذا النوع، أي من الالتفات بالرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة قول ابن النبية  في حقه: ﴿ قَتَلْتُ رَبَّ السَّيْفِ وَالطَّلَسَانَ أَسْمَرَ كَالرَّمَحِ لَهُ مَقْلَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ كَحَلَاءٍ كَانَتْ سَنَانٌ ﴾

فقد عدل عن الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني لغرض بلاغي قد يكون التفنن في الأسلوب، وقد يكون التمكن من بناء التشبيه الذي يشبه فيه القوام بالرمح، مع المحافظة على سلامة الوزن الشعري.

والقسم الثاني من الالتفات، هو الخاص بالرجوع أو العدول عن

الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

ويقول ابن الأثير إن هذا القسم كالذي قبله في أنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط، بل الأمر وراء ذلك. وإنما يقصد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخياً لأمره، وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر.

فمن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر قوله تعالى: ﴿يَا هود ما جئنا ببينة. وما نحن بتاركي أهتنا عن قولك. وما نحن لك بمؤمنين. أن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء. قال إني أشهد الله. وأشهدوا أي برىء عما تشركون﴾.

فإنه إنما قال: ﴿أشهد الله وأشهدوا﴾ ولم يقل: «وأشهدكم» ليكون موازناً له وبمعناه، لأن الشهادة بلفظ على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهدهم فما هو إلا تهافت بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول - المستقبل - لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر، كما يقول الرجل لمن ساءت علاقته به: أشهد عليّ أني أحبك، تهكماً به واستهانة بحاله.



ومن الالتفات بالرجوع أو العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر بغرض التوكيد لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه قوله تعالى: ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون﴾.

وكان تقدير الكلام: أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك بالالتفات إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في

نفوسهم، فإن الصلاة من أؤكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية، ولهذا قال النبي ﷺ: «الأعمال بالنيات».



أما القسم الثالث والأخير من أقسام الالتفات فهو الخاص بالإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالفعل الماضي.

فالأول هنا، هو الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل. وبيان ذلك أن الفعل المستقبل إذا أتى في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي. والسبب في ذلك أن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي.



وليس كل فعل مستقبل يعطف على ماضٍ يجري هذا المجرى. وتفصيل ذلك أن عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي وهو إخبار عن الفعل الماضي بمستقبل، والآخر ليس بلاغياً. وليس إخباراً عن فعل ماضٍ بمستقبل، وإنما هو مستقبل دل على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمتض.

فالمضرب الأول كقوله تعالى: ﴿وَالله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فآحينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾. وإنما قال ﴿فتثير﴾ مستقبلاً وما قبله وما بعده ماضٍ، وذلك حكاية للحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة... وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تميز وخصوصية، كحال تُستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك.

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾. فقال أولاً ﴿خر من السماء﴾ بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل وهو «تخطفه وتهوي»، وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به في مكان سحيق.

ومنه كذلك قول تأبط شراً:

بأي قد لقيت الغول تهوي بشهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً للبدن وللجران^(١)

فتأبط شراً قصد في هذين البيتين أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يُريهم إياها مشاهدة ماثلة أمام أعينهم للتعجب من جرأته على ذلك الهول. ولو قال «فأضربتها» عطفاً على الفعل الماضي قبله وهو «لقيت» لزال الغرض البلاغي المذكور.

أما الضرب الثاني، وهو الفعل المستقبل الذي يدل على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أنه فعل مستمر الوجود لم يمحض فكقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله﴾ فإنه إنما عطف الفعل المستقبل ﴿يصدون﴾ على الماضي ﴿كفروا﴾ لأن كفرهم كان

(١) الغول بالضم: الحية، والسحلاة، والداهية، وكل ما اغتال الإنسان وأهلكه فهو غول، وكانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات والصحاري تراهي للناس فتقول تغولاً، أي تلون تلوناً في صور شتى فتضلهم عن الطريق وتملكهم. وعلى هذا المعنى تكون الغول التي ورد ذكرها في البيت قد تمثلت لتأبط شراً في صورة ناقة أو جمل. والصحصحان: الأرض المستوية الواسعة، والجران بكسر الجيم: مقدم عنق البعير من ملبحة إلى منحره، وإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض.

وَوُجِدَ وَلَمْ يَسْتَجِدُوا بَعْدَهُ كَفْراً ثَانِياً، وَصَدَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مُتَجِدِّدٍ عَلَى
الْأَيَّامِ لَمْ يَمُضْ وَجُودُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَمِرٌّ يَسْتَأْنِفُ فِي كُلِّ حِينٍ.

ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾. فهنا عدل عن لفظ الماضي إلى المستقبل فقال: ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ ولم يقل «فأصبحت» عطفاً على «أنزل» وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان. فلإنزال الماء مضي وجوده وإخضرار الأرض باق لم يمض.

وهذا كما نقول: «أنعم عليّ فلان فأروح وأغدو شاكرًا له» ولو قلت: «فرحت وغدوت شاكرًا له» لم يقع ذلك الموضع، لأنه يدل على ماضٍ قد كان وانقضى.



وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل، فهو عكس ما تقدم ذكره، وفائدته أن الفعل الماضي ~~هو~~ ^{أخبار} عن المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد.

وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها. والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذلك تبين هيئة الفعل واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها، والغرض بالإخبار بالماضي عن المستقبل هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد.

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُزْعَمُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإنه إنما قال

﴿ ففرع ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله ﴿ ينفخ ﴾ وهو مستقبل، للإشعار بتحقيق الفرع، وأنه كائن لا محالة، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به.

ومن أمثلة الالتفات بالإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل أيضاً قوله تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾. وإنما قيل ﴿ وحشرناهم ﴾ ماضياً بعد «نسير وتري» وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي.

فالعُدول بالالتفات عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة لا يكون، كما رأينا، إلا لنوع من الخصوصية التي هي ذلك. وهذه أمر لا يتوخاه في كلامه إلا المتمرس بفن القول والعارف بأسرار الفصاحة والبلاغة^(١).

مركز تحقيقات اللغة العربية

الجمع: هو أن يُجمع بين متعدد في حكم واحد، أو هو أن يجمع المتكلم بين شيئين فأكثر في حكم واحد، كقوله تعالى: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾، فقد جمع الله سبحانه وتعالى المال والبنون في الزينة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ﴾^(٢). فجمع بين الشمس والقمر في الحسبان أي الحساب

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٦٧ - ١٧٣.

(٢) الحسبان يضم الحاء كالفقران: الحساب الدقيق، والنجم هنا: النبات الذي ينجم أي يظهر من الأرض ولا ساق له، والشجر: النبات الذي له ساق وله أغصان، ويسجدان: أي يتقادان لما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه منها.

الدقيق، وجمع بين النجم والشجر في السجود أي الانقياد لإرادة الله سبحانه.

ومنه قوله ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عند قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(١). فجمع الأمن ومعافاة البدن وقوت اليوم في حكم واحد هو حيازة الدنيا وامتلاكها بحذافيرها أي من جميع نواحيها.

ومنه شعراً قول أبي العتاهية:

إن الفراغ والشباب والجدّة مفسدة للمرء أي مفسدة
فجمع الشاهر بين الفراغ والشباب والجدّة أي الاستغناء في حكم
واحد هو المفسدة، أي أن هذه الأمور تؤدي بصاحبها إلى الفساد.



التفريق في اللغة ~~فصل الشيء~~ فصل الشيء

والتفريق في اصطلاح البديعيين هو إيقاع تباين بين أمرين من نوع، في المدح وغيره. وهذا معناه أن المتكلم أو الناظم يأتي إلى شيئين من نوع واحد فيوقع بينهما تبايناً وتفريقاً بفرق يفيد زيادة وترجيحاً فيها هو بصدده من مدح أو ذم أو نسيب أو غيره من الأغراض الأدبية.
ومن أمثلة التفريق قول رشيد الدين الوطواط:

(١) السرب بكسر السين وسكون الراء: النفس وهو المراد هنا، ومن معانيها أيضاً: الجماعة من النساء والبقر والقطا والشاء والوحش، والجمع أسراب، والحذافير: التواشي، واحدها حذافر.

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يسوم سخفاء
فنسوال الأمير بدرة عين^(١) ونسوال الغمام قطرة ماء
فالشاعر هنا قد أوقع التباين بين النوالين أي العطائين: نوال الغمام
ونوال الأمير، مع أنهما من نوع واحد وهو مطلق نوال.

ومن أمثلة التفريق أيضاً قول الشاعر:

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شكلين
أنت إذا جُذت ضاحك أبداً وهو إذا جاد داعم العسين
فهنا شيثان من نوع واحد هما جدوى الممدوح وجدوى الغمام، أي
عطاؤهما، وقد أوقع الشاعر تبايناً بينهما بفرق يفيد زيادة وترجيحاً لكفة
عطاء الممدوح، فهو يعطي ضاحكاً فريحاً بالعطاء، على حين يعطي الغمام
داعم العين، كأنما هناك قوة تدفعه إلى العطاء على غير إرادة منه.

ومنه قول الشاعر:

قاسوك بالغصن في الشئ ^{مركبة كميته} قاس ^{بشئ} جهل بلا انتصاف
هذاك غصن الخلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف

فالشاعر أق هنا بشيئين من نوع واحد على التشبيه هما: غصن شجر
الخلاف أي الصفصاف، وقوام صاحبه الذي يشبه الغصن في الشئ، ثم
أوقع التباين والتفريق بينهما لفائدة معنوية ادعاها، وهي تفضيل قوام
صاحبه على غصن الخلاف، لأن الأخير تنفر النفس عنه لاسمه «الخلاف»

(١) العين: من معانيها التقدير عامة من دراهم وديناتير وغيرها وهو المقصود هنا، والبدرة:
كيس فيه ألف أو عشرة آلاف، وهذا الكيس يصنع من جلد ولد الضأن إذا فطم، فبدرة
عين: كيس مملوء بالدراهم أو الديناتير أو غيرها، والنوال: العطاء.

أما الأول وهو قوام صاحبه فغصن لا خلاف ولا شك فيه. وفي «خلاف» و«خلاف» جناس تام لتشابه اللفظين نطقاً لا معنى، واتفاق حروفهما هيئة ونوعاً وعدداً وترتيباً.

ومن التفريق أيضاً قول صفي الدين الحلي في مدح الرسول:

فجود كفيه لم تقلع سحائبه عن العباد وجود السحب لم يدم
ففي البيت شيثان من نوع واحد هما: جود كفي الرسول صلوات
الله عليه وجود السحب، وقد أوقع الشاعر تبايناً بينهما مع أنها من نوع
واحد وهو مطلق جود.

وقد قصد الشاعر من وراء هذا التباين أو التفريق بين الشيئين من
نوع واحد إلى غرض بلاغي هو ترجيح وتفضيل جود كفي الرسول على
جود السحب، فجود كفي الرسول على العباد متصل دائم وجود السحب
منقطع غير دائم.

مركز تقيتكم بآية الله
الجمع مع التقسيم

الجمع مع التقسيم: هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه، أو
العكس أي تقسيم متعدد ثم جمعه تحت حكم.

فالأول وهو جمع المتعدد ثم تقسيمه كقول المتنبي من قصيدة يصف
فيها موقعة دارت بين الروم والعرب بقيادة سيف الدولة بالقرب من بحيرة
الحدث:

حتى أقام على أرياض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيع^(١)

(١) الأرياض: جمع روض بفتحين، وهو ما حول المدينة، وخرشنة: بلد من بلاد الروم،
وفيها بقول أبو فراس الحمداني:

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
فالتنبي هنا جمع الروم ممثلين في نسائهم وأولادهم وأموالهم وزرعهم
تحت حكم واحد هو الشقاء، ثم قسم ذلك الحكم إلى سبي وقتل ونهب
وإحراق، وأرجع إلى كل قسم من هذه الأقسام ما يلائمه ويناسبه، فأرجع
للسبي ما نكحوا، وللقتل ما ولدوا، وللنهب ما جمعوا، وللنار ما زرعوا،
أي إتلاف مزارعهم بالإحراق.

ومع أن الصليبان والبيع تشترك بالعطف مع الروم في الحكم عليها
بالشقاء إلا أن التقسيم خصّ بالروم وقصر عليهم وحدهم.

والثاني: هو التقسيم ثم الجمع، أو بعبارة أخرى هو تقديم التقسيم
وتأخير الجمع في الحكم عليه. ومن أمثله قول حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضروا عبداً
سجية تلك منهم غير محدثة

قسم الشاعر في البيت الأول صفة المدحوحين إلى ضر الأعداء في
الحرب ونفع الأشياع والأولياء، ثم عاد فجمعها في البيت الثاني حيث
قال: «سجية تلك».

والنوع الأول هنا كما يبدو أحسن وأوقع في القلوب من الثاني،
وعليه مشى أصحاب البديعيات.

إن زرت وعششنة أسيراً فلكم أحطت بها منيراً
ولقد رأيت النار تـ تهب المنازل والقصورا
ولئن لقيت الحزن في بك فقد لقيت بك السرورا

(١) البدع: جمع بدعة، وهي الحدث في الدين بعد الكمال، والمراد بها هنا محدثات
الأخلاق.

ومن النوع الأول أيضاً وهو الجمع ثم التقسيم قول صفى الدين الخلي:

أبادهم فليت المال ما جمعوا والروح للسيف والأجساد للرخم^(١)
فكما يفهم من البيت جمع الشاعر المتمردين على السلطان تحت حكم واحد هو الإبادة، ثم قسم ذلك الحكم إلى المال والروح والأجساد، وأرجع إلى كل واحد من هذه الأقسام ما يناسبه، فأرجع لبيت المال ما جمعوا، وللسيف الروح وللرخم الأجساد.

ويلاحظ على هذا البيت أن صفى الدين الخلي قد استوحى معناه من معنى المتنبي السابق، ولكن شتان بين صياغة وصياغة، وبين شاعر مبتدع وآخر مقلد.



يعرفه علماء البديع **بأنه الجمع بين شيئين في حكم واحد ثم التفريق بينهما في ذلك الحكم.**

ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾. فاللحن أولاً أن الله سبحانه جعل الليل والنهار آيتين، أي دليلين على قدرته وحكمته، والمراد بمحو آية خلقها محوها ضوءها، أي جعلها مظلمة كما جعل آية النهار مبصرة.

على هذا جمع بين الليل والنهار في حكم واحد هو أنها آيتان ودليان على القدرة والحكمة، ثم فرق بينهما في ذلك الحكم من جهة أن الليل يكون مظلماً والنهار يكون مضيئاً.

(١) الرخم: الطيور، جمع رخة بفتحين.

ومن أمثلة الجمع مع التفريق شعراً قول رشيد الدين الوطواط:
فوجهك كالنار في ضوئها وقلبي كالسنار في حرها
فقد جمع بين وجه الحبيب وقلب نفسه في حكم واحد هو تشبيهها
بالنار، ثم فرق بينهما في ذلك الحكم من جهة وجه الشبه في كليهما، فوجه
الحبيبة كالنار في ضوئها ولعانها، وقلب الشاعر كالنار في حرارتها ولهبها
المحرق.

ومن الشواهد أيضاً قول الفخر عيسى:

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصة
فوجتتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي
فالشاعر هنا جمع بين الدمعين ساعة الفراق في الشبه، ثم فرق بينهما
بأن دمع الحبيبة أبيض فإذا جرى على خدها صار أحمر بسبب احمرار
خدها، وأن دمعه أحمر لأنه يهكمي دما وجسده من التحول والشحوب
أصفر فإذا جرى دمعها على خده تميزه أحمر.

ومن أمثلة الجمع مع التفريق كذلك قول البيهقي:

ولما التقينا والنقا موعده لنا تعجب رائني الدرّ منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
فالبهقي في بيته هذين جمع بين رائني الدر ولاقطه في حكم واحد
هو التعجب، ثم فرق بينهما في ذلك الحكم، أي من جهة التعجب،
فرائي الدر يتعجب من ثنايها اللؤلؤية التي تبدو له عند ابتسامها، ولاقط
الدر يتعجب مما تنفجر عنه شفتاها عند الحديث من كلمات يلتقطها وكأنها
اللؤلؤ قيمة ونفاسة.

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو الجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، ثم التفريق بينها في ذلك الحكم، ثم التقسيم بين الشيئين أو الأشياء المفرقة بأن يضاف إلى كل ما يلائمه ويناسبه.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكْلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَقِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَقِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوذٌ﴾^(١).

أما الجمع ففي قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكْلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فإن قوله ﴿نَفْسٌ﴾ متعدد معنى، أي جمع الأنفس بقوله: ﴿لَا تَكْلُمُ نَفْسٌ﴾، ثم فرق بينهم بأن بعضهم شقي وبعضهم سعيد، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار، وإلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة.

ومن الجمع مع التفريق والتقسيم شعراً قول ابن شرف القيرواني:
لمختلفي الحاجات جمع يبابه فهذا له فن وهذا له فن
فللخامل العليا وللعمى الغنى وللمذنب العتي وللخائف الأمن^(٢)
فمختلفو الحاجات جمع بينهم في حكم واحد هو الاجتماع أمام

(١) يوم يأتي: أي يوم يأتي أمر ربك، والزفير: إخراج النفس بشدة، والشهيق رد النفس بشدة، وعطاء غير مجذوذ: أي عطاء غير متقطع.

(٢) الفن هنا: الحال، والخامل: ساقط النباهة الذي لاحظ له، مأخوذ من غل المنزل حولاً إذا غفا ودرس، وللمذنب العتي: أي الرضا عنه والتجاوز عن ذنبه.

بابه، ثم فرق بينهم في ذلك الحكم من جهة أن كلاً منهم له حال خاصة
تخالف حال غيره، ثم عاد فقسّم بأن أضاف إلى كل واحد منهم ما يناسب
حاله، فللخامل العليا، وللمعلم الغنى، وللمذنب العتبي، وللخائف
الأمن.



تأكيد المدح بما يشبه الذم

أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي عبدالله بن المعتز، فقد عده في كتابه «البديع» من محاسن الكلام، وسماه «تأكيد مدح بما يشبه الذم» وأورد له مثاليين هما قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن كلامهم حسن فلول من قسراع الكتاب
وقول النابغة الجعدي:

ففي كملت أخلاقه غير أنه جواد فما بقي من المال باقيا
ومن البلاغيين من يسمي هذا الفن البديعي «الاستثناء» ناظرين إلى أن حسنه المعنوي ناشيء من أثر أداة الاستثناء التي يُبنى عليها، ولكن تسمية ابن المعتز له أدل في الواقع عليه من تسميته «بالاستثناء».

• • •

وتأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان:

١ - أولهما، وهو في الوقت ذاته أفضلهما، أن يستثنى من صفة ذم

منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم.

كقول النابغة الذبياني السابق:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قِراع الكتائب^(١)
فالنابغة هنا نفى أولاً عن مدحيه صفة العيب ثم عاد فأثبت لهم
بالاستثناء عيباً هو أن سيوفهم بين فلول من قِراع الكتائب،
وهذه ليست في الواقع صفة ذم وإنما هي صفة مدح أثبتتها الشاعر
لمدحيه وأكدها بما يشبه الذم.

وتأكيد المدح في هذا الضرب من وجهين: أحدهما أن التأكيد فيه هو
من جهة أنه كدعوى الشيء بيّنة وبرهان، كأنه استدل على أنه لا عيب
فيهم بأن ثبوت عيب لهم معلق بكون فلول السيف عيباً وهو محال.

والوجه الثاني أن الأصل في مطلق الاستثناء الاتصال، بمعنى أن
المستثنى يكون داخلًا في المستثنى من أفراد من أفراد، وعلى هذا فإذا قيل:
«ولا عيب فيهم غير...» فإن السامع يجهل كمجرد التلفظ بأداة الاستثناء
«غير» أو نحوها وقبل النطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها وهو المستثنى لا بدّ
أن يكون صفة ذم، فإذا ولى أداة الاستثناء صفة مدح تبدد توهم السامع
بهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها. لقد توهم أن الذي سيلي أداة الاستثناء
لا بدّ أن يكون صفة ذم فإذا به يفاجأ بأنها صفة مدح. ومن هنا يحىء
التوكيد لما فيه من المدح على المدح، ومن الإشعار بأن المتكلم لم يجد صفة
ذم يستثنيها فاضطر إلى استثناء صفة مدح وتحويل الاستثناء من متصل إلى
منقطع.



(١) الفلول: جمع قل، وهو النلم يصيب السيف في حفه، وقِراع الكتائب: مضاربة الجيوش
ومقاتلتها عند اللقاء.

٢ - والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له.

ومثال ذلك قول الرسول: «أنا أفصح العرب بيد أي من قريش»، و«بيد» بمعنى «غير» وهو أداة استثناء، وأصل الاستثناء في هذا الضرب أن يكون منقطعاً، ولم يقدر متصلاً لأنه ليس هنا صفة ذم منفية عامة يمكن تقدير دخول صفة المدح فيها.

وإذا لم يمكن تقدير الاستثناء متصلاً في هذا الضرب فلا يفيد التوكيد إلا من الوجه الثاني، وهو أن ذكر أداة الاستثناء يوهم إخراج شيء مما قبلها من حيث أن الأصل في مطلق الاستثناء هو الاتصال، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التوكيد.

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضرب آخر وهو أن يؤن بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾. أي وما تعيب منا إلا الإيمان بالله الذي هو أصل المناقب والمفاخر كلها.

فالفعل ﴿تنقم﴾ فيه معنى العيب والذم، والمستثنى بإلا وهو مصدر الإيمان المؤول من «أن آمنا» يتضمن صفة مدح، وهو في الوقت ذاته معمول الفعل ﴿تنقم﴾. فهذا المثال ونظائره مما تأتي فيه صفة المدح الواقعة بعد أداة الاستثناء معمولاً لفعل فيه معنى الذم - يعد ضرباً آخر من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وفي هذا الأسلوب البديعي قد تأتي أدوات الاستثناء من مثل «إلا»، «وغير»، «وسوى» بمعنى «لكن» التي للاستدراك، وعندئذ يكون تأكيد المدح

بما يشبه الذم فيها من الضرب الثاني الذي يتمثل في إثبات صفة مدح
لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له. وذلك
كقول الشاعر:

هو البحر إلا أنه البحر زاخراً سوى أنه الضرغام لكنه الويل
فالممدوح هنا هو البحر، لكنه البحر زاخراً، لكنه الضرغام، لكنه
الويل أي المطر، فقد شبه الممدوح بالبحر وهذه صفة مدح، ثم أكدت
هذه الصفة بصفات مدح أخرى هي: أنه البحر زاخراً، وأنه الضرغام
شجاعاً، وأنه الويل أي المطر غزارة. وكل ذلك قد ثبت وتأكد
بالاستدراك الذي أزال توهم السامع بالاستثناء لصفات ذم وأحل محلها
صفات مدح.

ويعد... فتجدر الإشارة هنا إلى أن تسمية هذا الفن البديعي
«بتأكيد المدح بما يشبه الذم» قد نظر فيها إلى الأعم الأغلب، وإلا فقد
يكون ذلك في غير المدح والذم ~~وتكون من محسنات الكلام~~، كقوله تعالى:
﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف﴾. يعني إن
أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره، وذلك غير
الممكن.

والغرض بطبيعة الحال هنا هو المبالغة في تحريم هذا النوع من
الزواج وسد الطريق إلى إباحته. ويمكن تسمية ما يأتي من هذا القبيل
«بتأكيد الشيء بما يشبه نقيضه».

وتتمة لما سبق وزيادة في توضيحه نورد فيما يلي بعض أمثلة مما جادت
به قرائح الشعراء فيه.

فالضرب الأول من تأكيد المدح بما يشبه الذم هو، كما عرفنا، أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم. ومن أمثلة ذلك:

١ - قول أبي هفان الشاعر:

ولا عيب فينا غير أن سماحنا أضرب بنا، والبأس من كل جانب
فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عائب
فقوله إن السماح والبأس أضرباً بهم ليس بعيب على الحقيقة، ولكنه تأكيد مدح. ومما زاد المعنى ملاحظة ولطف موقع ما تضمنته من احتراز بدیع في قوله «غير ظالم وغير عائب».

٢ - وقول ابن الرومي:

ليس له عيب سوى أن لا تقع العين على شبهه
فجعل انفراده في الكثرة بالحسن دون أن يكون له قرين يؤنس عيباً، فهو بذلك يزيد تأكيد حسنه.

٣ - وقول حاتم الطائي:

وما تشتكي جاري غير أنني إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع أهلها إليها ولم تُقصر عليّ ستورها
٤ - وقول أبي هلال العسكري:

ولا عيب فيه غير أن ذوي الندى نخاس إذا قيسوا به ولثام
٥ - وقول شاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

٦ - وقول صفي الدين الحلي في المعنى السابق :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

٧ - وقول جمال الدين بن نباتة :

لا عيب فيه سوى العزائم قصرت عنها الكواكب وهي بعد تحلق

٨ - وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ .

• • •

والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له . ومن أمثله :



١ - قول النابغة الجعدي :

ففي كملت أخلاقه ~~ففي كملت أخلاقه~~ جواد فما يبقى من المال باقيا
ففي كان فيه ما يمر صديقه على أن فيه ما يسيء الأحاديا

٢ - وقول شاعر آخر :

أدافع عن أحسابهم غير أنني وحاشاي يوماً لا أئمن عليهمو

٣ - وقول شاعر ثالث :

أطلب المجد دائباً غير أني في طلاهي لا تعرف اليأس نفسي

تأكيد الذم بمسايشب المدح

وتأكيد الذم بما يشبه المدح كعكسه السابق ضربان :

١ - أحدهما أن يُثبت من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم،
بتقدير دنعوها في صفة المدح
وذلك نحو قول القائل ~~فلان لا خير فيه~~ إلا أنه يسيء إلى من
أحسن إليه.

٢ - وثانيهما أن يُثبت للشيء صفة ذم وتُعقَّب بأداة استثناء تليها
صفة ذم أخرى له . وذلك كقول القائل : «فلان فاسق إلا أنه جاهل» .
والضرب الأول يفيد التأكيد من وجهين ، والثاني من وجه واحد ،
كما مر من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

المذهب الكلامي

المذهب الكلامي نوع كبير من أنواع البديع المعنوي ، وقد عده ابن
المعتر أحد الفنون البديعية الخمسة الأساسية التي بنى عليها كتابه

«البديع»، وقال عنه: «هو مذهب سماء عمرو الجاحظ المذهب الكلامي». وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»^(١).

ولكن ابن المعتز لم يذكر مفهوم الجاحظ لهذا الفن البدعي كما أنه لم يحاول هو تحديده، وكل ما فعله أنه ذكر بعض أمثلة له، منها قول الفرزدق:

لكل امرئ نفسان: نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتي ويطيعها
ونفسك من نفسك تشفع للندي إذا قل من أحرارهن شفيحها
ومنها قول أبي نواس:

إن هذا يرى - ولا رأي للاحق - حق - أي أصده إنساناً
ذاك في الظن عنده وهو ضلبي كمالذي لم يكن وإن كان كانا
وقول إبراهيم بن المهدي يفتخر طاعون من وثوبه على الخلافة:

البر منك وطاء العذر عندك فبما جعلت فلم تعدل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
وإذا تأملنا كل مثال من هذه الأمثلة وجدنا أن الشاعر يدعي دعوى
ثم يحاول التماس دليل مقنع عليها. تماماً كما يفعل المتكلمون بإيراد
الحجج العقلية على دعاوهم.

وعلى هذا فأغلب الظن أن مفهوم المذهب الكلامي عند الجاحظ
وابن المعتز كما توحي به الأمثلة السابقة هو: اصطناع مذهب المتكلمين
العقلي في الجدل والاستدلال وإيراد الحجج والتماس العلل، وذلك بأن

(١) كتاب البديع لابن المعتز ص ٥٣ - ٥٧.

يأتي البليغ على صحة دعواه بحجة قاطعة أياً كان نوعها.

ولعل مما يؤكد ذلك قول الجاحظ في معرض المعرفة والاستدلال:
«ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال لما
كان لوضع الدلالة معنى... .. وللعقل في خلال ذلك مجال، وللرأي
تقلب، وتنتشر للمخاطر أسباب، وينتهي لصواب الرأي أبواب»^(١).



وقد عرض البلاغيون بعد ابن المعتز للمذهب الكلامي وعدوه من
فنون البديع، ومن هؤلاء أبو هلال العسكري وابن رشيق القيرواني.

وكلام هذين الأديبين لم يزد في جملته على ما قاله ابن المعتز نقلاً عن
الجاحظ، ولكن أبا هلال يعلق بملاحظة ذكية على قول ابن المعتز، فيقول
في مستهل كلامه عن المذهب الكلامي: «جعل عبد الله بن المعتز الباب
الخامس من البديع، وقال: ما أعلم أن وجدت منه شيئاً في القرآن وهو
ينسب إلى التكلف، فنسبه إلى التكلف وجعله من البديع»^(٢).

كما أن ابن رشيق يقرر أنه «مذهب كلامي فلسفي»^(٣) كما جاء في
تعقيبه على بيتين من شعر أبي نواس.



وإذا ما انتهينا إلى العصور المتأخرة فإننا نجد الخطيب القزويني
«٧٣٩ هـ» يعرف المذهب الكلامي بقوله: «هو إيراد حجة للمطلوب على
طريقة أهل الكلام، نحو: ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا﴾»^(٤).

(١) كتاب الحيوان ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٤١٠.

(٣) كتاب العملة ج ٢ ص ٧٦.

(٤) كتاب التلخيص للقزويني ص ٣٧٤.

والفزويي يقصد «بطريقة أهل الكلام» أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب. ففي قوله تعالى: ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا﴾ اللازم، وهو فساد السموات والأرض باطل، لأن المراد به خروجهما عن النظام الذي هما عليه، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل.

ومثل هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ أي والإعادة أهون عليه من البدء، والأهون من البدء أدخل في الإمكان من البدء. فالإعادة أدخل في الإمكان من البدء وهو المطلوب.

وقد استشهد الفزويي على هذا الفن البديهي أيضاً بأبيات من قصيدة للناطقة الذبياني يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر، وهي:

حلفت فلم أترك لنفسك رية^(١) وليس وراء الله للمرء مذهب^(٢)
لئن كنت قد بلغت عني^(٣) لمهلك الواسي أغش وأكذب
ولكنني كنت أصراً إلى جانب^(٤) من الأرض فيه مستراد ومذهب^(٥)
ملوك وإخوان إذا ما مدحهم^(٦) أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطفتهم فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا

فالقضية كما يفهم من القصيدة التي منها هذه الأبيات أن الناطقة قد كان مدح آل جفنة بالشام فتتكر النعمان لذلك وغضب على الشاعر. وفي هذه الأبيات التي هي مثال للمذهب الكلامي يجادل الناطقة النعمان بالمنطق ويدافع عن نفسه بالحجج وبأنه لم ينحرف عن ولائه له، وليس من العدل التفرقة في الحكم بين مدح ومدح. ثم ينتهي بالحجة الدامغة

(١) الرية: الشك.

(٢) مستراد: موضع يتردد فيه لطلب الرزق، وهو من راد سراً بمعنى طلبه.

فيقول: أنت أحسنت إلى قوم أراك اصطفتهم فمدحوك، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم، فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنباً، فكذلك مدحي لمن أحسن إليّ لا يعد ذنباً.

ففي المذهب الكلامي قضايا ودعاوى يدافع عنها بالمنطق والجدل، والحجج والأدلة المقنعة، كما رأينا.



ومن جاءوا بعد القزويني وعرضوا للمذهب الكلامي ابن حجة الحموي أحد علماء وأدباء القرن التاسع الهجري.

ففي مستهل حديثه عنه يقول: «المذهب الكلامي نوع كبير نسبت تسميته إلى الجاحظ. وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات الأصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة».

ثم يستطرد إلى الرد على قول ابن المعتز بأنه لا يعلم ذلك في القرآن، يعني المذهب الكلامي، فيقول ابن حجة: «وليس عدم علمه مانعاً علم غيره، إذ لم يستشهد على هذا المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن، وأصح الأدلة في شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتُمْ﴾، هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله، وتمام الدليل أن تقول: لكنهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة غير الله».

ومن أدلته أيضاً عنده قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وتمام الدليل أن يقال: لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلاً فلم تعلموا ما أعلم. فهذان قياسان شرطيان من كلام الله وكلام نبيه.

ومثله قول مالك بن المرحل الأندلسي :

لو يكون الحب وصلأ كله لم تكن غايته إلا الملل
أو يكون الحب هجراً كله لم تكن غايته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا يستطاب الماء إلا بالعقل

فالبیتان الأولان قياس شرطي والثالث قياس فقهي، فإنه قياس
الوصل على الماء، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش، فالوصل مثله
لا يستطاب إلا بعد حرارة الحجر.

وعند ابن حجة أن القياس الشرطي أوضح دلالة في هذا الباب من
غيره، وأعذب في الذوق، وأسهل في التركيب، فإنه جملة واقعة بعد «لو»
الشرطية وجوابها، وهذه الجملة على اصطلاح المناطقة مقدمة شرطية
يستدل بها على ما تقدم من الحكم



اللف والنشر

ويسميه بعض البديعيين «الطلي والنشر» : وهو ذكر متعدد على
التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن
السامع يرد إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية.

وهذا يعني أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنص على كل واحد
منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد وتفوض إلى العقل
رد كل واحد إلى ما يليق به من غير حاجة إلى أن تنص أنت على ذلك.

(١) ارجع إلى كلام ابن حجة الحموي عن هذا النوع البديعي في كتابه «خزانة الأدب»
ص ١٦٥.

أقسامه :

واللف والنشر كما يفهم من التعريف السابق قسمان :

الأول : ذكر المتعدد على التفصيل وهو ضربان :

١ - أحدهما : أن يكون النشر على ترتيب اللف بأن يكون الأول من المتعدد في النشر للأول من المتعدد في اللف، والثاني للثاني، وهكذا إلى الآخر. وهذا الضرب هو الأكثر في اللف والنشر والأشهر.

ومن شواهد هذا الضرب بين اثنين قوله تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ فالسكون راجع إلى الليل والابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار على الترتيب.

ومن شواهد شعراً قول الشاعر :

أنت الذي من ورد ^{فجرت} ورد راحته أجنبي وأغترف؟

ومنها أيضاً مع زيادة التورية قول شاعر آخر :

سألته عن قومه فأتني ^{مرأته كغيرهم} يعجب من إسراف دمي السخي
وأبصر المسك ويدر الدجي فقال ذا خالي وهذا أخي

ومن شواهد بين ثلاثة وثلاثة قول ابن حيوس :

ومقرطق يغني النديم بوجهه ^١ عن كأسه الملأى وعن إريقه ^(١)
فعل المدام ولونها ومذاقها من مقلتيه ووجتيه وريقه

ومنها قول ابن الرومي :

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دَجُونُ نجوم

(١) المقرطق : لابس القرطق، أي القباء بفتح القاف وهو نوع من الثياب.

فيها معالم للهدى ومصابيح
ومثله قول حميدة الأندلسية:

ولما أهن الواشون إلا فراقنا وما لهمو عندي وعندك من ثار
غزونا همو من ناظريك وأدمعي وأنفلسنا بالسيف والسيل والنار

ومن شواهد ذكر المتعدد على التفصيل والترتيب بين أربعة وأربعة
قول الشاب الفزيف شمس الدين بن العفيف:

رأى جسدي والدمع والقلب والحشا فأضقى وأفنى واستمال وتيسا
ومن شواهد أيضاً قول الشاعر:

ثغر ونحد ونهد واحمرار يد كالطلع والسورد والرمال والبلح
وقد افتن الشعراء في هذا النوع من اللف والنشر المفصل المرتب
حتى بلغوا فيه إلى الجمع بين عشرة وعشرون كقول بعضهم:

شعر جبين عينا معطف كقيل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانه ونقا أس أفاح شقيق نرجس دُر

وحسن هذا النوع من البديع يتمثل في أن يكون اللف والنشر في
بيت واحد خالياً من الحشو والتعقيد جامعاً بين سهولة اللفظ والمعاني
المختصرة. ولكن المبالغة والإسراف في كثرة المتعدد منه كما في بعض الأمثلة
السابقة تخرج به عن دائرة البديع وتجرده من نعوت الحسن وترده إلى نوع
من العبث يدعو إلى العجب منه بدل الإعجاب به.

٢ - والضرب الثاني من اللف والنشر المفصل: هو ما يجيء على خير

(١) الرجوم: مفردة الرجم بسكون الجيم وهو القتل، والآخرات رجوم: أي والآخرات
منايا.

ترتيب اللف. ومن هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب، كقول ابن حيوس:

كيف أسلو وأنت حقف وغصن وغزال خطأ وقدأ وردفا^(١)
فاللحظ للغزال، والقدر للغصن، والردف للحقف.
وكقول الفرزدق:

لقد خنت قوماً لو لجأت إليهمو طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت فيهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم^(٢)
ومنه ما يكون مختلطاً مشوشاً، ولهذا يسمى اللف والنشر المشوش،
نحو: «هو ليل وورد ومسك خدأ وأنفاساً وشعراً».



والقسم الثاني من ~~النشر والنسج~~ ما يكون ذكر المتعدد فيه على الإجمال، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾. فإن الضمير في قوله ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، فذكر الفريقان هل وجه الإجمال بالضمير العائد إليهما، ثم ذكر ما لكل منهما، أي: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

فلف بين القولين إجمالاً ثقة بقدرة السامع على أن يرد إلى كل فريق قوله، وأمثاً من الالتباس، وذلك لعلمه بالتعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه بدعوى أن داخل الجنة هو لا صاحبه. وهذا

(١) الخقف بكسر الحاء: الرمل العظيم المستدير يشبه به الكفل في العظم والاستدارة.

(٢) الوشيج: شجر الرماح، وقيل: هي عامة الرماح واحدها وشيجة، وقيل: هو من القنا أصله.

القسم من اللف والنشر لا يقتضي ترتيباً أو عدم ترتيب.

ومن بديع اللف والنشر وغريبه أن يذكر متعددان أو أكثر ثم يذكر في نشر واحد ما يكون لكل من أفراد كل من المتعدين، كقول القائل: «الغنى والفقر والعلم والجهل بها تحيا الشعوب وبها تموت».

«فالغنى والفقر» لف أول، و«العلم والجهل» لف ثان، وقوله: «بها تحيا الشعوب وبها تموت» نشر ذكر فيه ما لكل واحد من اللفين، لأن قوله: «بها تحيا الشعوب» نشر راجع للفقى من اللف الأول وللعلم من اللف الثاني. وقوله: «وبها تموت» نشر راجع للفقى في اللف الأول، وللجهل في اللف الثاني.

ولعلنا بعد كل ما تقدم قلناه معنى تسمية هذا النوع من البديع المعنوي «باللف والنشر». فوجه تسمية المعنى المتعدد الأول على وجه التفصيل أو الإجمال باللفظ أنه انطوى فيه حكمه، لأنه اشتمل عليه من غير تصريح به، ثم لما صرح به في الثاني كان كأنه نشر لما كان مطوياً، فلذلك سمي نشرأ.

مراعاة النظير

ويسميه أصحاب البديع التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤانحة أيضاً. وهو في الاصطلاح: أن يجمع الناظم أو الناشر أمراً وما يناسبه لا بالتضاد لتخرج المطابقة، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ أو معنى لمعنى، إذ المقصود جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أي وجه من الوجوه.

ومن أمثلة ذلك قول البحري في وصف الإبل الانضاء التي أنحلها
السير:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار
فإنه لما شبه الإبل بالقسي وأراد أن يكرر التشبيه كان يمكنه أن
يشبهها مثلاً بالعراجين أو تون الخط لأن المعنى واحد في الانحناء والركة،
ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم ذكر القسي.

ومن شواهد مراعاة النظير التي يجمع فيها بين الأمر وما يناسبه لا
على وجه التضاد قول الشاعر في وصف فارس:

من جلنار ناضر خذه وأذنه من ورق الأس^(١)

فالمناسبة هنا بين الجلنار والأس والنضارة.

ومنها أيضاً قول ابن رجب في شرح الأمير تميم:

أصبح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويه السيول من تحتها عن البحر عن كف الأمير تميم

فإن الشاعر قد ناسب هنا بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور
والرواية، ثم بين السيل والحيا والبحر وكف تميم، مع ما في البيت الثاني
من صحة الترتيب في العنونة، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في
سند الأحاديث، فإن السيول أصلها المطر والمطر أصله البحر، ولهذا جعل
كف المدوح أصلاً للبحر مبالغة.

ومنها كذلك قول الشاعر:

(١) الجلنار: زهر الرمان.

والظل في سلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط
فالجمع بين كل أمر وما يناسبه في البيتين أوضح من أن يدل عليه.
تشابه الأطراف:

ومن مراعاة النظر ما يسميه بعضهم «تشابه الأطراف»، وهو أن
يختتم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار
وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾. فإن اللطف يناسب ما لا يدرك
بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً، فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً
به.

ومنه قوله تعالى أيضاً: ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله
هو الغني الحميد ﴾. قال: ﴿ الغني الحميد ﴾ على أن ما له ليس بحاجة،
بل هو غني عنه جواد به، فإذا عباد به حمده المنعم عليه.

مرآتية تشبيه

إيهام التناسب:

ويقصد به الجمع بين معنيين غير متناسين بلفظين يكون لهما معنيان
متناسبان وإن لم يكونا مقصودين، ومن أجل ذلك يلحق بمراعاة النظر.

ومثال إيهام التناسب هذا قوله تعالى: ﴿ الشمس والقمر بحسبان.
والنجم والشجر يسجدان ﴾. ﴿ فالشمس والقمر بحسبان ﴾ أي
بحساب معلوم وتقدير محكم دقيق، ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾،
النجم: النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول، والشجر
الذي له ساق. وسجودهما: انقيادهما لله فيما خلقا له.

فالنجم بمعنى النبات وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر، فقد يكون
بمعنى الكوكب وهو مناسب لهما. ولهذا سمي إيهام التناسب.

أسلوب الحكيم

يقصد بأسلوب الحكيم تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى.

ومن أمثلة ذلك: ~~وقيل لشيخهم~~ وقيل لشيخهم مالك؟ فقال: إني أمين وثقة الناس بي عظيمة. وقيل لشيخ هرم: لكم سنك؟ فقال: إني أنعم بالعافية.

ففي السؤال الأول صرف التاجر سائله عن رأس ماله ببيان ما هو عليه من الأمانة وعظم ثقة الناس فيه، إشعاراً بأن هاتين الصفتين وأمثالهما أجلب للربح وأضمن لنجاح التجارة.

وفي السؤال الثاني ترك الشيخ الهرم الإجابة عن السؤال الموجه إليه، وصرف سائله في رفق عن ذلك، وأخبره أن صحته موهورة، إشعاراً للسائل بأن السؤال عن الصحة أولى وأجدر.



ولعل الجاحظ أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي، فقد عقد له باباً خاصاً في كتابه البيان والتبيين^(١) وأطلق عليه اسم واللغز في الجواب، وأورد له أمثلة شتى منها:

سأل رجل بلالاً مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة: من سبق؟ قال: سبق المقربون. قال: إغنا أسألك عن الخيل. قال: وأنا أجيبك عن الخير. فترك بلال جواب لفظه إلى خير هو أنفع له.

وقال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ قال: أمتفرقاً كان فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهراً؟ قال: بل أقرؤه وأنا أنظر إليه. قال: أتحفظه؟ قال: ألهخشيت قراره فأحفظه؟ قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله ولعنتك. قال: إنك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال: ألقى الله بعلمي، وتلقاه أنت بدمي.

وقالوا: كان الخطيئة يرعى غنماً وفي يده عصا، فمربه رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك، قال: عجرا من سلم^(٢)، يعني عصاه، قال: إلى خفيف، فقال الخطيئة: كذا وكذا.

فمن هذه الشواهد ونظائرها يتضح أن هذا الأسلوب من الكلام والذي أطلق عليه الجاحظ واللغز في الجواب، كان يستعمله العرب لأغراض مختلفة كالتمطرف أو التخلص من إحراج السائل، أو تقديم الأهم، أو التهكم...

وما من شك في أن ما قدمه الجاحظ من أمثلة شتى في هذا الباب قد لفت أنظار البلاغيين من بعده لهذا النوع من الكلام، وأعطاهم الأساس

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٨، ص ٢٨٢.

(٢) العجرا: الكثيرة العجر، أي العقد، والسلم بالتحريك: شجر.

للونين من ألوان البديع هما: اللغز وأسلوب الحكيم.



وقد أطلق عليه المتأخرون من البلاغيين اسم «القول بالموجب»، ولهم فيه عبارات مختلفة. ومن هؤلاء ابن أبي الأصبع المصري فقد عرفه بقوله: «هو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام فيعمد المخاطب إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم». وذلك عين القول بالموجب لأن حقيقته رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه.

وكلام ابن أبي الأصبع هذا يذكرنا إلى حد ما بكلام الجاحظ السابق ويوحى بأنه قد تأثر به في مفهومه لهذا النوع البديعي.

وقد قسم الخطيب القزويني «القول بالموجب» في تلخيصه وإيضاحه^(١) قسمين:



١ - أحدهما أن تقع صفة في كلام للغير كناية عن شيء أثبت له حكم فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم أو انتفائه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة لمخرجنا الأعز منها الأذل والله العزة ورسوله وللمؤمنين﴾، فإنهم كنوا «بالأعز» عن فريقهم، و«بالأذل» عن فريق المؤمنين، وأثبتوا للأعز «الإخراج»، فأثبت الله في الرد عليهم صفة ﴿العزة﴾ لله ورسوله وللمؤمنين من غير تعرض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم.

(١) كتاب التلخيص ص ٣٨٦، وكتاب الإيضاح ص ٢٧٢.

ومنه أيضاً ما جرى بين القبعثري والحجاج، فقد توعدده الحجاج بقوله: «ولاحملتك على الأدهم» فقال القبعثري: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب». فقال له الحجاج: «أردت الحديد»، فقال القبعثري: «لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً». أراد الحجاج بالأدهم القيد، وبالحديد المعدن المخصوص، وحملها القبعثري على الفرس الأدهم الذي ليس بليداً. فالكلام هنا قد حمله القبعثري على خلاف مراد الحجاج قائله.



٢- والقسم الثاني من أسلوب الحكيم أو القول بالموجب عند صاحب التلخيص هو حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه. وهذا القسم هو الذي شاع تداوله بين الناس ونظمه أصحاب البديعيات، كقول ابن حجاج (١) قال ثقلت إذا أتيت براراً قلت ثقلت كاهلي بالأبيادي قال طولت قلت أوليت طولك على من جعلت قلت جبل ودادي فصاحب ابن حجاج يقول له: قد ثقلت عليك وحملتك المشقة بكثرة زياراتي فيصرفه الشاعر عن رأيه في أدب وظرف وينقل كلمته من معناها إلى معنى آخر، ويقول له: إنك ثقلت كاهلي بما أغدقت عليّ من نعم.

وفي البيت الثاني يقول صاحبه: قد طولت إقامتي عندك وأبرمتك أي جعلتك برماً ملولاً، فيرد الشاعر عليه مرة أخرى في أدب ولطف

(١) هو أبو عبدالله بن أحمد البغدادي، شاعر يميل إلى المجون في شعره، وله ديوان شعر كبير، توفي سنة ٣٩١ هـ.

وينقل كلامه من معناه إلى معنى آخر، ويقول له: إنك تطولت وأنعمت علي وأحكمت وقويت حبل ودادي.



ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾. فالسؤال هنا عن حقيقة الأهلة: لم تبد صغيرة ثم تزداد حتى يتكامل نورها ثم تتضاءل حتى لا نرى؟.

ولما كانت هذه القضية من قضايا علم الفلك وفهمها وقتئذٍ يحتاج إلى دراسة عويصة، فإن القرآن قد عدل عن الإجابة عنها إلى بيان أن الأهلة وسائل للتوقيت في المعاملات والعبادات. وفي هذه إشارة إلى أن ما كان ينبغي أن يسأل عنه هو فائدة الأهلة لا حقيقتها، إلى أن تيسر لهم الحقائق العلمية التي تعينهم على فهم هذه الظاهرة الكونية.

ومن كذلك قوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين والأيتام والمساكين وابن السبيل﴾.

فالمسلمون قد سألوا الرسول ماذا تنفق من أموالنا، فصرفهم عن هذا بيان المصروف، لأن النفقة لا يعتد بها إن لم تقع موقعها.

ومن أمثله شعراً قول شاعر راثياً:

ولما نعى الناعي سألناه خشية وللعين خوف البين تسكب أمطار
أجاب قضي! قلنا قضي حاجة العلا فقال مضي! قلنا بكل فخر
فأسلوب الحكيم في البيت الثاني هو في قوله: «قضي» ويريد بها «مات» ولكنهم حلوها على إنجاز الحاجات وقضائها، وهذا ما لم يقصده.
وكذلك في قوله: «مضي» أراد بها «مات» وأرادوا هم «ذهب بالفضل ولم يدع لأحد شيئاً».

ومنه قول شاعر آخر:

ولقد أتيت لصاحبي وسألته في قرض دينار لأمر كانا
فأجابني والله داري ما حوت عيناً فقلت له ولا إنساناً^(١)

فالبيت الثاني جاء على أسلوب الحكيم، لأن المخاطب أراد بكلمة
«عيناً» الذهب، ولكن المتكلم حملها على العين الباصرة، وهو ما لم يقصده
المخاطب، إشارة إلى أن منعه من القرض لا يجوز.

ومنه كذلك قول بعضهم:

طلبت منه درهماً يوماً فأظهر المعجب
وقال ذا من فضة يصنع لا من الذهب

ففي البيت الثاني صرف لطيف عن طلب الدينار، فإن الشاعر لم
يجب السائل عن سؤاله، وإنما أخذ بحديثه فيما يصنع منه الدينار وأنه من
الفضة لا من الذهب، إشعاراً بأنه ما كان ينبغي له أن يطلب.

ومنه قول شاعر يجيب أبناً له سؤاله عن الروح والنفس:

جاءني ابني يوماً وكنت أراه لي ربحانة ومصدر أنس
قال: ما الروح؟ قلت: إنك روحي قال: ما النفس؟ قلت: إنك نفسي

ففي البيت الثاني سأل الابن عن الروح والنفس وهما من الأمور
التي حار العلماء والفلاسفة في تعريفها وتحديدتها، ولهذا صرف الشاعر
ابنه عن ذلك ببيان منزلته منه، إشعاراً بأنه ما كان ينبغي له أن يتكلم في
ذلك، لقصوره عن أن يتكلم فيما دق من الأمور.

(١) العين: الذهب والباصرة، والإنسان قد يراد به إنسان العين وقد يراد به أحد بني آدم.

وبعد فلعل في هذه الأمثلة ما يوضح ما سبق أن قلناه من أن أسلوب الحكيم أو القول بالموجب هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى.



التجريد

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة، وذلك لكمال تلك الصفة في الأمر الآخر.



والتجريد أقسام:

منها ما يكون التجريد فيه حاصلًا بلفظة «من» التجريدية، نحو قولهم: «لي من فلان صديق حميم»^(١). أي بلغ فلان من الصداقة حداً صح معه أن يستخلص من فلان هذا صديق آخر مثله في الصداقة.

١ - منها ما يكون التجريد فيه حاصلًا بلفظة «الباء» التجريدية الداخلة على المنتزع منه، نحو قولهم: «لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر». وهذا القول يقال في مقام المبالغة في وصف «فلان» بالكرم، حيث انتزع وجود منه بحر في الكرم والسماحة.

٢ - ومنه ما يكون التجريد فيه حاصلًا بلفظة «الباء» التجريدية الداخلة على المنتزع منه، نحو قولهم: «لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر». وهذا القول يقال في مقام المبالغة في وصف «فلان» بالكرم، حيث انتزع وجود منه بحر في الكرم والسماحة.

(١) حميمك: قريبك الذي تهتم لأمره.

٣ - ومنه ما يكون التجريد فيه حاصلًا بلفظة «باء المعية» الداخلة على المتزاع، نحو قول الشاعر:

وشوهاء تعدوي إلى صارخ الوغى بمستلثم مثل الفنيق المرحل^(١)
قالهني: ورب فرس هذه صفتها تعدوي لنجدة المستغيث في الحرب
ومعي من نفسي آخر مستعد للحرب. فقد بالغ في اتصافه بالاستعداد
حتى انتزع وجرد من نفسه مستعداً آخر لايسأ درعاً.

٤ - ومنه ما يكون التجريد فيه حاصلًا بدخول لفظة «في» على
المتزاع منه، نحو قوله تعالى: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾، أي لهم في جهنم،
وهي دار الخلد، لكنه انتزع داراً أخرى مثلها وجعلها معدة في جهنم
لأجل الكفار تهويلاً لأمرها، ومبالغة في اتصافها بالشدة.

٥ - ومنه ما يكون التجريد فيه حاصلًا بدون توسط حرف، كقول
قتادة بن مسلمة الحنفي:

فلئن بقيت لأرحلن ~~بقتور~~ ^{بقتور} الغنائم أو يموت كريم

فالشاعر قد عني «بالكريم» هنا نفسه، فكأنه انتزع وجرد من نفسه
كريمًا مبالغة في كرمه. وقيل إن التقدير «أو يموت مني كريم» فيكون من
قبيل: «لي من فلان صديق حميم» فلا يكون قسمًا آخر، وإنما يكون من
القسم الأول الذي يكون التجريد فيه حاصلًا بدخول «من» التجريدية
على المتزاع منه.

(١) وشوهاء: فرس شوهاء، وشوهاء في هذا الموضع صفة عمودة، ويروى بها صفة أشداق
الفرس، وصارخ الوغى: أي المستغيث في الحرب، والمستلثم: لايس اللأمة وهي
الدرع، والفنيق: الفحل المكرم عند أهله، والمرحل: من رحل البعير أشخصه من مكانه
وأرسله.

٦- ومنه ما يكون التجريد فيه حاصلًا بطريق الكناية، كقول

الأعشى:

يا خير من يركب المطي ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

ففي البيت تجريد بطريق الكناية حيث انتزع وجرد من الممدوح جواداً يشرب هو بكفه على طريق الكناية، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخل، فقد أثبت له الشرب بكف كريم. ومعلوم أنه يشرب بكفه، فهو ذلك الكريم.

٧- ومن أقسام التجريد كذلك مخاطبة الإنسان نفسه، وذلك بأن

يتزع الإنسان من نفسه شخصاً آخر يوجه الخطاب إليه، كقول المتنبي:

لا خيل عندك تهديها ولا مالاً فليسد النطق إن لم يسعد الحال^(١)

فالشاعر هنا يتزع من نفسه إنساناً آخر يخاطبه قائلاً: ليس عندك من الخيل والمال ما تهديه إلي الممدوح جزاء له على إحسانه إليك، فليسدك ويعنك النطق، أي فامدحه، وجازه بالثناء عليه، إن لم تعنك الحال على مجازاته بالمال أو الخيل.

ومثله في مخاطبة النفس قول الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرئحل وهل تطيق فراقاً أيها الرجل؟

ومن لطيف التجريد قول المعري:

ماجت نحر فهاجت منك ذا لبد والليث أفتك أفعالاً من النمر

وقد عرض ضياء الدين بن الأثير للتجريد فعرفه أولاً لغة بقوله:

(١) الإسعاد: الإعانة.

وإن أصله في وضع اللغة من جردت السيف إذا نزعته من غمده، وجردت
فلاناً إذا نزعته ثيابه. ومن ههنا قال عليه السلام: ولا مد ولا تجريد، وذلك في
النهى عند إقامة الحد أن يمد صاحبه على الأرض وأن تجرد ثيابه. وقد نقل
هذا المعنى إلى نوع من أنواع البيان.

ثم عرفه اصطلاحاً بقوله: والتجريد هو أن تطلق الخطاب على
غيرك ولا يكون هو المراد وإنما المراد نفسك.

وللتجريد عنده فائدتان إحداهما أبلغ من الأخرى، فالأولى طلب
التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطاباً لغيرك وباطنه خطاباً لنفسك
فإن ذلك من باب التوسع. وهو يظن أنه شيء اختصت به اللغة العربية
دون غيرها من اللغات.

والفائدة الثانية هي الأبلغ عنده، وذلك أن المخاطب يتمكن
بالتجريد من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه، إذ
يكون مخاطباً بها غيره فيكون أعذر وأبرأ فيما يقوله غير محجور عليه.

وعنده أن التجريد يأتي على ضربين:

١ - تجريد محض: وهو أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد
به نفسك، كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بالخيض بيض في
مطلع قصيدة له:

إلام يراك المجد في زي شاعر	وقد نحت شوقاً فروع المنابر؟
كتمت بعيب الشعر حلماً وحكمة	بعضهما تنقاد صعب المفاسر
أما وأبيك الخير إنك فارسك	حقال ومحبي الدارسات الغواير
وإنك أعيت المسامع والنهي	بقولك عما في بطون الدفاتر

ثم يعلق على ذلك بقوله: «فهذا من محاسن التجريد. ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه، كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة، وعد ما عدّه من الصفات الناقصة^(١)؟ وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض».

٢- وتجريد غير محض: وهو أن تأتي بكلام هو خطاب لنفسك لا لغيرك. ثم يستطرد ابن الأثير فيقول: «ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنها كأنهما شيء واحد لعلاقة أحدهما بالآخر».

والفرق عنده ظاهر بين هذين الضربين من التجريد، فالأول وهو المحض يسمى تجريداً لأن التجريد لا يثق به، أما الثاني وهو غير المحض فهو نصف تجريد، لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئاً، وإنما خاطبت نفسك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهي متصلة. ومن أمثلة التجريد غير المحض عنده قول عمر بن الأظنابة:

أقول لها وقد جشأت وجاشيت رويدك فحمدي أو تستريح
ومنه قول شاعر آخر:

أقول للنفس تأساء وتمزبة إحدى يدي أصابتي ولم ترد
وليس في هذا ما يصلح أن يكون خطاباً لغيرك كالأول، وإنما المتكلم هو المخاطب بعينه، وليس ثم شيء خارج عنه.

• • •

أما التجريد الذي قصد به التوسع خاصة، وهو ما كان ظاهره

(١) الثلاثة هنا: صفة مشتقة من التيه بمعنى الصلف والكبر والزهر، وليست مشتقة من «التيه» مصدر تاه يته في الأرض بمعنى ضل فيها ولحير.

خطاباً لغيرك وباطنه خطاباً لنفسك، فقد مثل له ابن الأثير بقول
الصحة بن عبدالله من شعراء الحماسة وهو:

حننت إلى رياء ونفسك باعدت مزارك من رياء وشعباكما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتحزع إن داعي الصباية أسما
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرُّبا وما أحسن المصطاف والمتربعا

فالبيتان الأولان يدلان على أن المراد بالتجريد فيها هو التوسع، لأن
الخطاب فيها تجريدي إذ وجه الخطاب إلى غيره وهو يريد شخصه، ثم
انتقل من الخطاب التجريدي إلى خطاب النفس في البيتين الأخيرين.

ولو استمر على الحالة الأولى لما قضى عليه بالتوسع، ولما كان
يقضي عليه بالتجريد البليغ الذي هو الطرف الآخر، وكان يتأول له بأن
غرضه من خطاب غيره أن ينفى عن نفسه سمعة الهوى ومعة العشق لما
في ذلك من الشهرة والخصامة. لكنه قد أزال هذا التأويل بانتقاله عن
التجريد أولاً إلى خطاب النفس (١).

(١) انظر في موضوع التجريد كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٦٥ - ١٦٧.

المحسنات البديعية اللفظية الجناس

الجناس من فنون البديع اللفظية. ومن أوائل من فطنوا إليه عبدالله بن المعتز، فقد عده في كتابه ثاني أبواب البديع الخمسة الكبرى عنده وعرفه ومثل للحسن والمحسن بأمثلة شق. وهو يعرفه بقوله: «الجناس أن يحىء الكلمة تجناس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها».

فمفهوم الجناس عند ابن المعتز مقصور كما نرى على تشابه الكلمات في تأليف حروفها، من غير إقصاح عما إذا كان هذا التشابه يمتد إلى معاني الكلمات المتشابهة الحروف أم لا.

ولكن لعل فيما ذكره من تعريف الخليل بن أحمد للجناس ما يوضح هذا الأمر. قال الخليل: «الجناس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو، فمنه ما تكون الكلمة تجناس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشق منها مثل قول الشاعر:

يوم خلجيت على الخليج نفوسهم...»^(١).

(١) كتاب البديع ص ٢٥.

أو يكون تجانسا في تأليف الحروف دون المعنى مثل قوله تعالى:
﴿ وأسلمت مع سليمان لرب العالمين ﴾ (١).

فإن صح الاستنباط من هذا التعريف كان مفهوم الجنس عند
الخليل بالأصالة وابن المعتز بالثبوت مفهوماً عاماً يشمل الكلمات المتجانسة
الحروف سواء تجانست معنى أم اختلفت.

والواقع أن الجنس من أكثر فنون البديع التي تصرف فيها العلماء
من أرباب هذه الصناعة، فقد ألفوا فيه كتباً شتى، وجعلوه أبواباً متعددة
واختلفوا في ذلك، وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض. ومن هؤلاء ابن
المعتز السابق الذكر، وقدامة بن جعفر الكاتب، والقاضي الجرجاني،
والحاتمي وغيرهم.



ومن العلماء من يسمى هذا الفن من البديع اللفظي تجنيساً، ومن
يسميه مجانساً، ومن يسميه مجانساً أسماء مختلفة والمسمى واحد. وسبب
هذه التسمية راجع إلى أن حروف الكلمة يكون تركيبها من جنس واحد.
وحقيقة الجنس عند ابن الأثير أن يكون اللفظ واحداً والمعنى
مختلفاً، وذلك يعني أنه هو اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس
الحقيقي في شيء.

وعلى هذا فالجنس هو: تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في
المعنى. وهذان اللفظان المتشابهان نطقاً المختلفان معنى يسميان «ركني
الجنس». ولا يشترط في الجنس تشابه جميع الحروف، بل يكفي في
التشابه ما نعرف به المجانسة.

(١) خلجت نفوسهم: طعنتها بالرمح.

أقسام الجناس

والجناس ينقسم قسمين: تام وغير تام، فالجناس التام: هو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور هي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهبتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها وهذا هو أكمل أنواع الجناس إبداعاً وأسماءاً رتبة.

والجناس الناقص: هو ما اتفق في أقل من هذه الأمور.

أقسام الجناس التام:

وهذا النوع من الجناس ينقسم بدوره ثلاثة أقسام هي: المماثل، والمستوفي بفتح الفاء، وجناس التركيب. وفيما يلي بيان كل ذلك مفصلاً وموضحاً بالأمثلة.

١ - الجناس المماثل: وهو ما كان ركناء أي لفظاه من نوع واحد من أنواع الكلمة، بمعنى أن يكونا اسمين، أو فعلين، أو حرفين.

فمن أمثلة الجناس المماثل بين «اسمين» قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾.

فالجنانس هنا بين اسمين متماثلين في كل شيء هما ﴿الساعة﴾ و﴿ساعة﴾ الأول بمعنى القيامة، والثاني بمعنى مطلق الوقت.

ومثله قوله تعالى: ﴿يكاد سنا برفه ينهب بالابصار بقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾. ﴿الأبصار﴾ الأولى جمع «بصر» وهو حاسة الرؤية، و﴿الأبصار﴾ الثانية جمع «بصر» وهو العلم، فأولوا الأبصار: أصحاب العلم.

ومنه شعراً قول أبي نواس:

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

ومنه قول المعري:

تقول أنت امرؤ جاف مغالطة فقلت: لا هومت أجفان أجفانا

فأجفان الأولى اسم وهو جمع واحد جفن وهو غطاء العين، والثاني اسم تفضيل بمعنى أجفان أجفان فالجنانس بين متماثلين لفظاً مختلفين معنى.

وقول البحتري:

إذا العين راحت وهي عين على الهوى فليس بسر ما تسر الأضالع

العين الأولى الباصرة، والثانية الجاسوس.

وقول أبي تمام:

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا صدور العوالي في صدور الكتائب

فلفظ «الصدور» في هذا البيت واحد والمعنى مختلف.

وقوله أيضاً مادحاً:

من القوم جعد أبيض الوجه والندي وليس بنان يجتدي منه بالجعد
فالجعد السيد، والبنان الجعد ضد البسيط، فأحدهما يوصف به
الكريم السخي والآخر يوصف به البخيل الشحيح.

ومن أمثلة الجناس المماثل بين «فعلين»، قول أبي محمد الخازن:
قوم لو أنهم ارتاضوا لما قرضوا أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا
«فشعروا» الأولى بمعنى أحسوا، و«شعروا» الثانية بمعنى نظموا
الشعر.

وقول شاعر:

يا إخوتي مد يانت النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب
فسارفتكم وبقيت بعدكم ما هكذا كان الذي يجب
فيجب في آخر البيت الأول من الوجوب وهو الارتجاف
والاضطراب، وفي آخر البيت الثاني من الوجوب وهو اللزوم والثبوت.

ومن أمثلة الجناس المماثل بين «حرفين»، نحو قولك: «فلان يعيش
بالقلم الحر الجريء فتفتح له أبواب النجاح به». فالباء في «بالقلم» هي
الداخلية على آلة الفعل فتفيد معنى الاستعانة، أي أنه يستعين بالقلم على
العيش، والباء في «به» هي باء السببية، بمعنى أن أبواب النجاح تفتح له
بسبب قلمه الحر الجريء. ففي البائين جناس لتمامتهما لفظاً واختلافهما
معنى.

ومثل قولك: «قد ينزل المطر شتاء وقد ينزل صيفاً» فلفظة «قد»
الأولى للتكثير والأخرى للتقليل، لأن المطر يكثر نزوله شتاء ويقل صيفاً.
ونحو قولك أيضاً: «من الناس من يعمل من شروق الشمس إلى ما

بعد غروبها بساعات» فلفظة من في «من الناس» تفيد معنى التبعض، أي بعض الناس، ولفظة من في «من شروق الشمس» تفيد معنى الابتداء أي ابتداء من شروق الشمس، فبين الحرفين كما ترى جناس لتمامتهما لفظاً واختلافهما معنى.



٢ - الجناس المستوفى: هو ما كان ركناء، أي لفظاه، من نوعين مختلفين من أنواع الكلمة، بأن يكون أحدهما اسماً والآخر فعلاً، أو بأن يكون أحدهما حرفاً والآخر اسماً أو فعلاً.

فمن أمثلة الجناس المستوفى بين الاسم والفعل قول محمد بن كناسة في رثاء ابن له:

وسميته يحيى ليحيا ولم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل
تيممت فيه الفأل حين رزقته ولم أدر أن الفأل فيه بفيل^(١)
فالجناس هنا بين يحيى الاسم ويحيى الفعل، وهما متشابهان لفظاً مختلفان معنى ونوعاً.

ومن أمثله وفي نفس اللفظين السابقين قول أبي تمام:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبدالله
ومنه قول الشاعر:

إذا رماك الدهر في معشر وأجمع الناس على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

(١) الفأل: ضد الطيرة، وهو لا يكون إلا فيما يتحب، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وبفيل، بفتح الفاء.

فدارهم الأولى فعل أمر من المداراة، ودارهم الثانية اسم للبيت،
وأرضهم الأولى فعل أمر من الإرضاء، وأرضهم الثانية هي الأرض اسم.
ومنه قول أبي العلاء المعري:

لو زارنا طيف ذات الخال أحياناً ونحن في حفر الأجداث أحياناً
فأحياناً الأولى اسم بمعنى من وقت لآخر، وأحياناً الثانية فعل
مضارع بمعنى بعث فينا الحياة من جديد، ففي اللفظين الجنس المستوفى
لتشابههما لفظاً واختلافهما نوعاً ومعنى.

ومن بديع الجنس بين الاسم والفعل ما كُتب به إلى الخليفة المأمون
في حق عامل له وهو: «فلان ما ترك فضة إلا فضها، ولا ذهباً إلا أذهب،
ولا مالاً إلا مال عليه، ولا فرساً إلا افترسه، ولا داراً إلا أدارها ملكاً،
ولا غلة إلا غلّها، ولا ضيعة إلا ضيعها، ولا عقاراً إلا عقره، ولا حالاً
إلا أحاله، ولا جليلاً إلا أجلاّمه ولا دقيماً إلا دقه».

ومن الجنس المستوفى بين الفعل والحرف قول الشاعر:

علا نجمه في عالم الشعر فجأة على أنه ما زال في الشعر شادياً
فالجناس هنا بين «علا» الأولى وهي فعل بمعنى ارتفع و«على» الثانية
التي هي حرف جر.

ومنه قول شاعر آخر:

ولو أن وصلاً عللوه بقربه لما أن من حمل الصبابة والجوى
فالجناس هنا بين «أن» الأولى وهي حرف توكيد ونصب و«أن»
الثانية فعل ماضٍ من الأنين.

• • •

٣ - جناس التركيب: وهو ما كان أحد ركنيه كلمة واحدة والأخرى مركبة من كلمتين: وهذا الجناس ثلاثة أضرب تأتي على النحو التالي:
أ - المتشابه: وهو ما تشابه ركناه، أي الكلمة المفردة والأخرى المركبة لفظاً وخطاً.

ومن أمثله قول الشاعر:

إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبه
ومثله قول القائل:

يا سيداً حناز رقى. بما حباني وأولى
أحسنتم برأ فقل لي أحسنتم في الشكر أولاً؟

فالجناس بين «أولى» وهي كلمة مفردة فعل بمعنى منح وأعطى، وبين «أولاً» وهي كلمة مركبة من «أول» العاطفة و«لا» النافية.

ومثله قول شمس الدين القفاوي:

حسار في سقمي من بعدهم كل من في الحى داوى أورقا
بعدهم لا طل وادي المنحنى وكذا بان الحمى لا أورقا^(١)

فركن الجناس الأول هنا «أورقا» وهو مركب من كلمتين أولاهما «أو» العاطفة، والأخرى «رقا» الفعل بمعنى عوّذه بالله، وركنه الثاني «أورقا» الفعل وهو كلمة واحدة بمعنى خرج ورقه.

(١) البان: شجر يطول في امتواء مثل نبات الأثل، وهو شديد الخضرة، وثمره كالفواكه واحلته «بانة» وبها تشبه الجارية الناعمة. والمعنى: لا سقى الله وادي المنحنى ولا أورق بان الحمى بعد رحيلهم.

ب - المفروق: وهو ما تشابه ركناه، أي الكلمة المفردة والأخرى المركبة لفظاً لا خطأً.

ومن أمثلة هذا النوع كقول الشاعر:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها
وإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذي بها
فالجناس بين: تهذيبها، وتهذي بها، وهما متشابهان لفظاً لا خطأً مع
اختلافهما معنى.

ومنه قول الشاعر:

قلت للماذل الملح على الدم مع وإجرائه على الخد نهلا
سل سبيلاً إلى النجاة ودع دم مع عيونى يجري لهم سلسيلا
فركنا الجناس «سل سبيلاً» و«سل سبيلاً» وهما متشابهان لفظاً لا خطأً
مع اختلاف المعنى.

ومثله قول ابن أسد الفارسي:

عدونا بآمال ورحنا بخيبة أماتت لنا أفهامنا والقرائح^(١)
فلا تلق منا غادياً نحو حاجة لنسأله عن حاجة والى راتحنا
فالجناس بين: «القرائح» و«اللى راتحنا» الأولى اسم هو جمع قريجة،
والأخرى مركبة من فعل أمر واسم، والركنان متشابهان لفظاً مختلفان خطأً
ومعنى.

ومثله قول الشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف:

(١) القرائح: جمع قريجة، وقريجة الإنسان طيمته التي جبل عليها، لأنها أول خلقته.

أسرع وسر طالب المعالي بكل واد وكل مهمة
وإن لحا عاذل... جهول فقل له: يا عذول مه مه

ومنه قول الشاعر:

فقل لنفسك أي الضرب يوجعها ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

فالجناس بين اسم مفرد «النواقيس» جمع ناقوس، ومركب من اسم
وفعل «النوى» اسم بمعنى الفراق و«قيسي» الأمر المسند إلى ياء المخاطبة
من قاس يقيس. وقد تشابه به الركان لفظاً لا خطأ مع اختلاف المعنى.

ومنه كذلك قول بهاء الدين السبكي:

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهي حتى تعود لي الحياة وأنت هي

فالجناس بين «أنتهي» و«أنت هي».

وهكذا يسمى الجناس في هذه الأمثلة ونظائرها مما يأتي فيه ركنا
الجناس أو لفظاء متشابهين لفظاً لا خطأ بالجناس «المفروق».

ج - المرفوع: وهو ما يكون فيه أحد الركنين كلمة والآخر مركباً من
كلمة وجزء من كلمة، نحو قول الحريري:

والمكر مهما أسطعت لا تانه لتفتني السودد والمكرمة

فالجناس هنا ركنه الأول مركب من كلمة وجزء من كلمة، هما لفظة
«المكر» والميم والهاء من «مهما» والثاني مفرد هو «المكرمة».

ومثله قول الحريري أيضاً:

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه بدمع يحاكي المزن حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم صابه

فالجناس هو بين كلمة «مصابه» ومركب من كلمة وجزء من كلمة أخرى، هما الميم الأخيرة من «مطعم» وكلمة «صابه»، وهما متشابهان لفظاً مختلفان معنى.

وهذا النوع الأخير من جناس التركيب لا يخلو، كما يبدو، من تعسف وتعقيد بالمقارنة إلى نوعيه الآخرين.



الجناس ضمير التام: وهو ما يختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة السابقة التي يجب توافرها في الجناس التام، وهي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها.

أ- فإن اختلف اللفظان في أنواع الحروف فيشترط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف واحد، وهذا الجناس يأتي على ضربين:

١- جناس مضارع: وهو ما كان فيه الحرفان اللذان وقع فيهما الاختلاف متقاربين في المخرج، سواء كانا في أول اللفظ نحو قول الحريري: «بيني وبين كن ليل دامس وطريق طامس»^(١)، أو في الوسط نحو قوله تعالى: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾، أو في الآخر نحو قول النبي ﷺ: «الحليل معقود بنواصيها الخير».

٢- جناس لاحق: وهو ما كان الحرفان فيه متباعدين في المخرج، سواء أكانا في أول اللفظ نحو قوله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ أو في الوسط نحو قوله تعالى: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق

(١) الكن بكسر الكاف وتشديد النون: المنزل، والدامس: الشديد الظلمة، والطامس: المطموس العلامات الذي لا يبتدى فيه إلى المراد.

وعما كنتم تفرحون ﴿١﴾ أو في الآخر نحو قوله تعالى: ﴿٢﴾ وإذا جاءهم أمر من الأمن أذاعوا به ﴿٣﴾.



ب - وإن اختلف اللفظان في أعداد الحروف سمي الجناس ناقصاً وذلك لنقصان أحد اللفظين عن الآخر، وهو يأتي كذلك على ضربين:

١ - ما كانت الزيادة في أحد لفظيه بحرف واحد، سواء كان ذلك الحرف في أول اللفظ نحو قوله تعالى: ﴿٤﴾ والثفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴿٥﴾ أو في الوسط نحو: «جَدِّي جهدي»^(١) أو في الآخر كقول الشاعر:

عذيري من دهر موار موارب له حسنات كلهن ذنوب
وقول شاعر متغزلاً:

وسألتها بإشارة عن حالها وعليّ فيها للوشاة عيون
فتنفست صعداً وقالت ذرّني الهوى والدمع الهوان فزال عنه النون

وقول البهاء زهير:

أشكو وأشكر فعمه فاعجب لشاك منه شاكر
طرفي وطرف النجم فيه لك كلاهما ساء وساهر

(١) وإذا جاءهم: أي إذا جاء المنافقين وضعاف العقول من المسلمين خبر أمر من أمور جيوش المسلمين مما يتصل بأمنها أو بما تخافه أذاعوا به، أي أذاعوه ونشروه وتحدثوا به، وقد يكون في ذلك ضرر على الجيوش.

(٢) الجد بفتح الجيم: الحظ، والجهد بفتح الجيم: المشقة والاجتهاد، والمعنى حظي من الدنيا أو غناني فيها إنما هو على قدر ما أبذل من سعي واجتهاد، وما أقبل من مشقة.

وقول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم نصول بأسياف قواض قواضب^(١)
وربما سمي هذا القسم الذي تكون فيه الزيادة في الآخر «مطرُقاً»
وذلك لتطرف الزيادة فيه. ووجه حسن هذا النوع، كما يقول عبد القاهر
الجرجاني، إنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من «عواصم»
أنها هي الكلمة التي مضت، وإنما أتى بها للتوكيد، حتى إذا تمكنت آخرها
في نفسك ووعاء سمعك، انصرف عنك ذلك التوهم. وفي ذلك حصول
الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها.

٢ - ما كانت الزيادة في أحد لفظيه بأكثر من حرف واحد في آخره.
وربما سمي هذا النوع «مذيلاً». ومن أمثله قول النابغة الذبياني:

لما نار جن بعد أنس تحولوا وزال بهم صرف التوى والنواب
وقوله أيضاً راثياً:

فيا لك من حزم وعزم جديد الردى بين الصفا والصفائح
وقول حسان بن ثابت:

وكنّا متى يغزى النبي قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل^(٢)

-
- (١) يمدون من أيد: يصح أن تكون «من» زائدة لكون المعنى يمدون أيدياً، ويصح أن تكون
للتبعيض، أي يمدون بعض أيد، ومثلها «هز من عطفه وحرك من نشاطه»، وعواص:
جمع عاصمة من عصاه ضربه بالعصا: أي السيف هنا، وعواصم: جمع عاصمة من
عصمه، أي حفظه ورعاه، وقواض: جمع قاضية: من قضى عليه قتله، وقواضب: جمع
قاضب من قضبه قطعه، والمعنى: يمدون للضرب يوم الحرب أيدياً ضاربين للأعداء
حاميات للأولياء صائلات على الأقران بسيف قاتلة قاطعة.
- (٢) القنابل: واحدها القنبلة والقنبل بفتح القاف فيها: الجماعة من الناس أو الخيل ما بين
الثلاثين إلى الأربعين ونحوه.

وقول الخشاء وهو من أرق ما سمع في هذا الباب:

إن السبكاء هو الشفا ء من الجوى بين الجوانح
ومما تجدر ملاحظته هنا أن بين المطرف والمذيل التقاء من وجه
وافتراقاً من وجه، فهما يلتقيان في أن كليهما زيادة في طرف أحد ركني
الجناس، ويفترقان في أن زيادة المطرف حرف واحد، أما المذيل فتكون
الزيادة فيه بأكثر من حرف.



ج- وإن اختلف اللفظان في هيئة الحروف الحاصلة من الحركات
والسكنات والنقط، فإن الجناس يأتي فيه على ضربين: محرف، ومصحف.

١- فالجناس المحرف: هو ما اتفق ركناه، أي لفظاه في عدد
الحروف وترتيبها، واختلفا في الحركات فقط سواء كانا من اسمين أو فعلين
أو من اسم وفعل أو من غير ذلك، فإن القصد اختلاف الحركات.

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين
فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾. ولا يقال هنا إن اللفظين متحدان في
المعنى لأنهما من «الإنذار» فلا يكون بينهما جناس، فاختلاف المعنى ظاهر،
إذ المراد باللفظ الأول ﴿منذرين﴾ الفاعلون وهم الرسل، وبالثاني
﴿المنذرين﴾ المفعولون، وهم الذين وقع عليهم الإنذار.

ومنه قول الرسول صلوات الله عليه: «اللهم كما حسنت خلقي
فحسن خلقي». ومنه قولهم: «جبة البرد جنة البرد»^(١) وكذلك قولهم:
«الجاهل إما مفرط أو مفرط» الأول اسم فاعل من الإفراط وهو تجاوز

(١) وقع الاختلاف بين البرد والبرد، لأن الباء في الأول مضمومة ويراد بها الثوب وفي الثاني
مفتوحة وهو ضد الحر. والجنة يضم الجيم: الوقاية.

الحمد، والثاني اسم فاعل من التخریط وهو التخصير، وقولهم: «البدعة شرك
الشرك».

ومن أمثلته شعراً قول المعري:

والحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر
الأول بالشين المكسورة والعين الساكنة، والثاني بالشين والعين
المفتوحتين، والمراد منها واضح.

وقول ابن الفارض:

هلا نَهاك نَهاك عن لوم امرئ لم يلف غير منعم بشقاء
وقول عبد العزيز الحموي:

لعمري كل يوم فيك عبرة تصيرني لأهل العشق عبدة^(١)
ومن أبدع ما جاء فيه هذا النوع من الجناس قول جميل بثينة،
وبعضه من أنواع أخرى: *مرزوق كميتر غنم سدي*

خليلي إن قالت بثينة: ما له أنا بلا وعد؟ فقولا لها
أق وهو مشغول لعظم الذي به ومن بات طول الليل يرعى السها سها
بثينة تزري بالغزاة في الضحى إذا برزت لم تبق يوماً بها بها
لها مقلة كحملاء نجلاء خلقة كأن أباهما الظبي أو أمها مها
دهني بود قاتل وهو متلفي وكم قتلت بالود من ودها دها^(٢)

(١) العبرة بفتح العين: الدفعة، والعبرة بكسر العين: العظة.

(٢) «لهاها» الكلمة الأولى جار ومجرور والثانية فعل ماض من اللهو، و«السها سها» الأولى اسم نجم والثانية فعل ماض من السهو، و«بها بها» الأولى جار ومجرور والثانية اسم مقصور من البهاء بمعنى الحسن، و«أمها مها» الأولى الأم المعروفة والثانية جمع مهاة وهي =

فالجنانس في البيت الأول «تام»، وفي البيت الثاني والثالث والخامس «مخرف» وفي البيت الرابع «مطرف».

٢ - والجنانس المصحف: هو ما اتفق فيه ركننا الجناس، أي لفظاء في عدد الحروف وترتيبها واختلفا في النقط فقط.

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿والذي هو يطعمني ويسقني وإذا مرضت فهو يشفين﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿وهم يحسون أنهم يحسنون صنعا﴾.

ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى». وقول عمر بن الخطاب: «لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر إن فائتي ربحه لم تفتني ربحه». وقال أهل الأدب: «خلف الوعد خلق الوغد».

ومن أمثلة الجناس المصحف في الشعر قول الشاعر:

فإن حلوا فليس كحتم ~~مختيار عن~~ وإن حلوا فليس لهم مفر
وقول أبي فراس الحمداني:

من بحر جودك أغترف وبفضل علمك أعترف
وقول البهاء زهير متغزلاً:

وليس مشيباً ما ترون بعارضي فلا تمنعوني أن أهيم وأطرباً

= هنا بقرة الوحش ومن معاني المهابة أيضاً «الدرة والبلورة الشديدة البياض» فإذا شبهت المرأة بالمهابة في البياض فلانما يعني بها الدرة أو البلورة، فإذا شبهت بها في المقلتين أي العيتين، فلانما يعني بها بقرة الوحش وهو المراد هنا في بيت جميل، و«بالود من ودها دهاء» الكلمة الأولى اسم بمعنى الوداد، والثانية فعل ماض بمعنى أحب، وهذان ركننا الجناس أما الكلمة الأخيرة «دهاء» فاسم مقصور من الدهاء وهي خارجة عن الجناس.

وما هو إلا نور ثغر لثته تعلق في أطراف شعري فألبا
وأعجبني التجنيس بيني وبينه فلما تبدى أشنباً رحت أشيباً

فالشنب بفتحيتين صفة حسن ورقة وعذوية في الثغر، يقال: ثغر
أشنب، أي طيب النكهة رقيق تبدو منه الشبايا بيضاء نقية، والجناس هنا
في «أشنباً» و«أشيباً»، واللفظان متماثلان في كل شيء ولا يختلفان
إلا في النقط فقط، وكل جناس من هذا النوع يسمى «جناس
التصحيح».

• • •

د- وإن اختلف اللفظان في ترتيب الحروف سمي «جناس القلب»،
وسماه قوم «جناس العكس». وهذا الجناس يشتمل كل واحد من ركنيه
على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص ويخالف أحدهما الآخر في
الترتيب. وهو يأتي على أربعة أنواع.

١- قلب كل: وذلك إذا جاء أحد اللفظين عكس الآخر في ترتيب
حروفه كلها، نحو قولهم: «حسامك فتح لأوليائه وحلف لأعدائه»، وهذا
المعنى مأخوذ من قول العباس بن الأحنف:

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حلف
ومنه قول الشاعر وقد جانس بين لفظي «راهب» و«بهار» بفتح
الباء:

حكائي بهار الروض حين ألفته وكل مشوق للبهار مصاحب^(١)

(١) البهار بفتح الباء نبت طيب الريح له زهرة صفراء نبت أيام الربيع، وقيل هو العرار
بفتح العين الذي يقال له عين البقر. قال الشاعر:

تمسح من شميم حرار نجد لها بعد العنبة من حرار

فقلت له ما بال لونك شاحباً فقال لأنى حين أقلب راهب
فكل من «بهار» و«راهب» مقلوب الآخر أو عكسه في ترتيب حروفه
كلها.

ومن بديع هذا النوع من الجناس قول جمال الدين بن نباتة في مدح
الأمير شجاع الدين بهرام:

قيل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب
قلت هذا تخرص قلب بهرام ما رهب^(١)

فالجناس هنا بين «بهرام» و«مارهب» وكلاهما عكس الآخر في
ترتيب حروفه كلها.

٢ - قلب بعض: وهو ما اختلف فيه اللفظان في ترتيب بعض
الحروف. ومن أمثلة هذا النوع قول الشاعر:

إن بين الضلوع مسني خطراً مطلقاً فكيف لي أن أطيعاً؟
فبحقي عليك يا من رزقني رزقاً سقيتني أم حريقاً؟

فالجناس بين «رحيقاً» و«حريقاً» فالاختلاف هو في ترتيب الحرفين
الأولين منهما.

ومنه قول القائل:

وألقيتهم يستعرضون حوائجا إليهم ولو كانت عليهم جوائجا

فالجناس بين «حوائجا» و«جوائجا» وهو قلب جزئي في ترتيب
بعض الحروف ومنه قول عبدالله بن رواحة في مدح الرسول:

(١) التخرص بتشديد الراء: الكذب.

تحمله الناقة الأدماء معتجراً بالبُرد كالبدر جلى نوره الظلماً^(١)

فالجناس بين «البرد» وهو الثوب و«البرد».

وقول أبي تمام:

بيض الصفائح لاسود الصفائح في متون جلاء الشك والريب^(٢)

فالجناس بين «الصفائح» وهي السيوف العريضة و«الصفائح».

وكذلك قول المتنبي:

منعمة منعمة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعاً^(٣)

ففي كل هذه الأمثلة وقع الجناس بين لفظين مختلفين في ترتيب بعض الحروف، ولهذا يقال إن الجناس فيها وفي نظائرها جناس «قلب بعض».

٣- قلب مجنح: وهو ما كان فيه أحد اللفظين اللذين وقع بينهما القلب في أول البيت والثاني في آخره، كأنهم جناحان للبيت.

ومن أمثلة ذلك قول الشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف:

أسكرني باللفظ والمقولة الـ كحلاء والوجنة والكاس

ساق يربني قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس

فالجناس هنا بين «ساق» في أول البيت و«قاس» في آخره، ولهذا

(١) الناقة الأدماء: البيضاء بياضاً واضحاً، ومعتجراً: من اعتجر العمامة لفها على رأسه.

(٢) الصفائح: جمع صفيحة، وهي السيوف العريضة.

(٣) امرأة رداح: ضخمة المعجزة ثقيلة الأوراك.

يقال له جناس «قلب مجنح». وإذا نظرنا إلى مجيء أحد اللفظين عكس الآخر في جميع حروفه قلنا إن فيه جناس «قلب كل» أيضاً.

ومنه كذلك قول الشاعر:

قد لاح أنوار الهدى في كفه في كل حال

٤ - مستو: وهذا النوع سماه قوم المقلوب، وسماه السكاكي مقلوب الكل، وعرفه الحريري في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس، وهو أن يكون عكس لفظي الجناس كطردهما، بمعنى أنه يمكن قراءتهما من اليمين والشمال دون أن يتغير المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿كل في فلك﴾ فإنك لو عكست هذا التركيب بدأت من الكاف في ﴿فلك﴾ إلى الكاف في ﴿كل﴾ كان هو بعينه.

وكذلك الشأن في قوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾. ومنه قول الحريري: «سأكب كاس». ومن الغايات في هذا الباب قول القائل:

لبق أقبل فيه ~~كل ما أملك~~ إن غنى به

فهذا البيت كل كلمة منه بانضمامها إلى أختها تجانسها في القلب. وأعلى من البيت السابق منزلة قول سيف الدين بن المشد:

لأمل أضواء هلاله أن يضيء بكوكب

فكل كلمة في هذا البيت تقرأ مستوية ومقلوبة، وهو مما لا يستحيل بالانعكاس.

• • •

وهناك نوع من الجناس غير الأنواع السابقة يسميه علماء البديع «الجناس الملقق».

وحدّ الملقق أن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين، وهذا هو الفرق بينه وبين «جناس التركيب» الذي أحد ركنيه كلمة مفردة والثاني مركب من كلمتين.

ومن الجناس الملقق في النظم قول الشاعر:

وكم لجباه الراغبين إليه من مجال سجود في مجالس جود
ومنه قول القاضي عبد الباقي بن أبي حصين وقد ولي القضاء بالمعرة
وهو ابن خمس وعشرين سنة وأقام في الحكم خمس سنين:

وليت الحكم خمأ وهي خمس لعمري والصبا في العنقوان
فلم تضع الأعادي قدر شائي ولا قالوا فلان قد رشائي
ومنه كذلك قول شرف الدين بن عنين:

خبروها بأنه وما تصدقوا لسلو عنها ولو «مات صدا»



وهذا وما تمهد الإشارة إليه أن أحد المتجانسين إذا ولي الآخر سمي «مزدوجاً» و«مكرراً» و«مردداً»، نحو قوله تعالى: ﴿وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾. ونحو قولهم: من طلب وجدّ وجد. وقولهم: من قرع باباً ولجّ ولج.

السجع

هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد. وهذا هو معنى قول السكاكي: «السجع في النثر كالقافية في الشعر».

والأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال

مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند توافق القواصل على حرف واحد هو المراد من السجع، إذ لو كان الأمر كذلك لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً.

ولمّا ينبغي في السجع بالإضافة إلى ما تقدم أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة لا غثة ولا باردة. والمراد بغثاثة الألفاظ وبرودتها أن صاحبها يصرف النظر إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وتراكيبها وما يشترط لكليهما من صفة الحسن.

فإذا صُفّي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرودة فإن وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعاً لللفظ، وإلا كان كظاهريه، على ما عرفت.

فإذا توافرت هذه الأمور في الكلام لمعناها مطلوباً آخر، وهو أن تكون كل واحدة من الفقرتين أو السجعتين المذكورتين دالة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه الأخرى. فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجتان يدلان على معنى واحد كانت إحداها كافية في الدلالة عليه.

وإذا رجعنا إلى كلام أعلام الكتاب المشهود لهم بالتفوق في النثر الفني من أمثال الصابي وابن العميد وابن عباد والحريري في مقاماته وابن نباتة في خطبه وجدنا أكثر المسجوع من كلامهم كذلك والأقل منه هو المستوفي لشروط السجع الحسن.

وهذه الشروط، كما يقول ابن الأثير، تتمثل في ثلاثة أمور: الأول

اختيار مفردات الألفاظ المسجوعة والتراكيب، بحيث تكون بعيدة عن الغثاثة والبرودة، والثاني أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا المعنى تابعاً للفظ، والثالث أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها.

ومن السجع الحسن المستوفي لهذه الشروط قول ابن الأثير من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس، قال: والكريم من أوجب لسائله حقاً، وجعل كواذب آماله صدقاً، وكان خرق العطايا منه خلقاً، ولم ير بين ذمه ورحمه فرقاً. وكل ذلك موجود في كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة، وجعل همه على تمام كل نقص قديرة.

ومن السجع الذي خرج إلى التطويل والتكرار لاتفاق السجعتين في معنى واحد وإن اختلفت الألفاظ قول الصابي من تحميد في كتاب: «الحمد لله الذي لا تدركه الحيون بالخطايا، ولا تحده الألسن بالفاظها، ولا تُخلقه العصور بمرورها، ولا يسهو الدهور بمرورها، ثم الصلاة على النبي الذي لم ير للكفر أثراً إلا طمس وجهه، ولا رسماً إلا أزاله وعفاه».

فلا فرق هنا بين مرور العصور وكر الدهور، وكذلك لا فرق بين محو الأثر وعفاء الرسم.

أقسام السجع

والسجع ليس صورة واحدة، وإنما هو يأتي في الكلام على أربعة أضرب أو أقسام: المطرف، والمرصع، والمتوازي، والمشطر.

١- فالمطرف: هو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزناً واتفقت رويًا، وذلك بأن يرد في أجزاء الكلام سجعات غير موزونة

عروضياً وبشرط أن يكون رويها روي القافية، نحو قوله تعالى: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً ﴾.

ومنه شعراً على الرأي القائل بأن السجع غير مختص بالنثر، وإنما هو يدخل النثر والشعر معاً - قول أبي تمام:

تجلى به رشدي وأثرت به يدي وفاض به ثمدي وأورى به زندي^(١)

٢ - الترصيع: وهو عبارة عن مقابلة كل لفظة من فقرة النثر أو صدر البيت بلفظة على وزنهما ورويها.

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾. ومنه قول الخريزي في المقامات: «يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويفرع الأسجاع بروشده وعظه».

ومن أمثله الشعرية قول ابن فراس الحمداني:

وأفعلنا للراغبين / تقبلوا هبة مني ولم يزلنا للطالبين خباب

ومنه قول الشاعر:

فيا يومها كم من مناف منافق ويا ليلها كم من مواف موافق

والبرز في هذا النوع مجرد نظم بيته من الحشو، والحشو في الترصيع عبارة عن تكرار الألفاظ التي ليست منه، بحيث لا يأتي في صدر بيته

(١) تجلى به رشدي: أي ظهر بهذا الممدوح بلوغ المقاصد، وأثرت به يدي: صارت ذات ثراء، والتمد بكسر التاء وسكون اليم: هو في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا المال القليل، وأورى به زندي بفتح الزاي: أي صار ذا وري، وهذا كناية عن الظفر بالطلوب.

بلفظة إلا ولها أخت تقابلها في المعجز، حتى في العروض والضرب، كقول
ابن النبية الشاعر:

فحريق جمة سيفه للمعتدي ورحيق خمرة سيبه للمعتني
فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه، فإن المقابلة فيه حاصلة
بين حريق ورحيق، وبين جمة وخمرة، وبين سيفه وسيبه، وبين المعتدي
والمعتني.

وبيت أبي فراس السابق خال من تصرع العروض والضرب،
والشاهد الثاني كرر فيه ناظمه حرف النداء فدخل عليه الحشو.

٣ - المتوازي: وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة^(١) أي الفقرة
مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله تعالى: ﴿ فيها سرور مرفوعة،
وأكواب موضوعة ﴾.

ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».
ومنه قول الحريري في المقامات: «حكم دهر قاسط إلى أن أنتجع
أرض واسط»، وقوله: «وأودى بي الناطق والصامت، ورثى لي الحاسد
والشامت».

ومن أمثله شعراً قول المتنبي:

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل^(٢)

(١) القرينة: الفقرة، وسميت الفقرة كذلك، لأنها تقارن أختها.

(٢) الجذل: الفرع، والوجل: الخوف، والمعنى: نحن المسلمين فرحون بانتصاره، والروم في
خوف منه لغاراته وغزواته، والبر مشغول بجيشه لا يفرغ لغيره، والبحر في خجل من
غزارة كرمه وندى يديه.

٤ - المشطور: ويسمى أيضاً التشطير، وهو أن يكون لكل شطر من البيت قافيتان مغايرتان لقافية الشطر الثاني. وهذا القسم خاص بالشعر، كقول أبي تمام:

تدبير معنصم بالله متقم لله مرتغب في الله مرتقب^(١)
فالشطر الأول كما ترى سبعة مبنية على قافية الميم، والشطر الثاني
سبعة مبنية على قافية الباء.



أحسن السجع:

١ - وأحسن السجع وأشرفه منزلة للاعتدال الذي فيه هو ما تساوت فقراته في عدد الكلمات، نحو قوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾، وقوله تعالى أيضاً: ﴿في سدر مخضود وطلح منضود، وظل ممدود﴾.

من السجع المشهور ما ورد في القرآن الكريم

٢ - ثم ما طالت به الفقرة الثانية عن الأولى طولاً لا يخرج بها عن الاعتدال كثيراً وذلك لثلاث يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة، نحو قوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذا^(٢)، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ فإن الفقرة الأولى ثمان لفظات والثانية تسع.

(١) المرتقب في الله: الراغب فيما يقربه من رضوانه، والمرقب: المنتظر الثواب الخائف العقاب.

(٢) إلا بكسر الهمزة: الأمر القطيع المنكر.

٣- ثم ما طالت فقرته الثالثة نحو قوله تعالى: ﴿ خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فأسلكوه ﴾.

٤- ولا يحسن أن يؤق بالفقرة الثانية أقصر من الأولى كثيراً، لأن السجع قد استوفى أمدّه من الفقرة الأولى بحكم طوله، ثم تحيىء الفقرة الثانية قصيرة عن الأولى، فتكون كالشيء المتور فيبقى الإنسان عند سماعها كمن يريد الانتهاء عند غاية فيعثر دونها.

السجع من حيث الطول والقصر:

إن السجع على اختلاف أقسامه يأتي على ضربين من حيث القصر والطول.

فالسجع القصير هو ما تكون فيه كل واحدة من السجعتين مؤلفة من الفاظ قليلة. وكلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل أو الفقرات المسجوعة من سجع السامع. وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً وأبعده متارلاً، ولا يكاد استحالة يقع إلا نادراً.

أما الضرب الثاني، وأعني به السجع الطويل، فهو ضد الأول لأنه أسهل تناولاً، وإنما كان القصير من السجع أوعر ملكاً من الطويل، لأن المعنى إذا صيغ بالفاظ قصيرة عز تحقيق السجع فيه لقصر تلك الألفاظ، وضيق المجال في استجلابه.

وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه، ويستجلب له السجع. وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته في علة ألفاظه.

وأحسن السجع القصير ما كان مؤلفاً من لفظتين لفظتين، كقوله تعالى: ﴿ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها

المدثر، قسم فأنثر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز^(١) فاهجر.

ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة، وكذلك إلى العشرة، وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل. ومما جاء منه قوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾، وقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾.

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً في الطول، فمنه ما يقرب من السجع القصير، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة إلى اثني عشرة لفظة، وأكثره خمس عشرة لفظة، كقوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه لنكفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾. فالفاصلة الأولى إحدى عشرة لفظة، والثانية ثلاث عشرة لفظة.

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها، كقوله تعالى: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكم كثيراً لفشتنم ولتتنازعنم في الأمر ولكن الله سلم أنه عليهم بذات الصدور، وإذا يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور﴾. ومن السجع الطويل ما تزيد الألفاظ في فقراته على هذا العدد.

(١) الرجز يضم الراء وكسرهما: عبادة الأوثان، والشرك، وقيل: هو العمل الذي يؤدي إلى العذاب والعقاب.

بناء الأسجاع:

هذا والأسجاع مبنية على سكون الاعجاز، أي أواخر فواصل الفقرات، لأن الغرض هو التواطؤ والمزاوجة بينها، ولا يتم ذلك في كل صورة إلا بالوقف بالسكون، كقولهم: «ما أبعد ما فات! وما أقرب ما هو آت!».

فلو لم نقف هنا على أواخر الفقرات بالسكون ووصلنا الكلام لاستدعى الأمر إجراء كل من الفقرتين على ما يقتضيه حكم الإعراب فتكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة، وبذلك يفوت الغرض من السجع.



وبعد... فلا تفوتنا الإشارة إلى اختلاف أرباب صناعة الكلام حول السجع وقيمته البلاغية فمنهم من يعبه ويعدّه من الأساليب التي تقوم أكثر ما تقوم على الصنعة والتكلف والتعسف. وهم يستدلون على وجهة نظرهم هذه بما آل إليه البيان العربي من تدهور وانحطاط في العصور التي شاع فيها استعمال السجع.

ومنهم من استحسّنه ودافع عنه محتجاً بأنه لو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، حيث لا تكاد سورة تخلو منه، بل إن من سورة ما جاءت جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما.

كذلك يحتجون بأن الصنعة والتكلف والتعسف ليست أموراً مقصورة على أسلوب السجع، وإنما هي أمور من الجائز أن تلحق بالسجع كما تلحق بغيره من الأساليب. وليس العيب في السجع ذاته وإنما العيب فيمن يحاوله ثم يعجز عن حسن استخدامه.

ولعل عبد القاهر الجرجاني خير من فصل في هذه القضية، فهو يقرر في معرض الكلام عن التجنيس والسجع أنها يختصان بالقبول والحسن عندما يكون المعنى هو الذي يقود المتكلم نحوهما لا أن يقوداه إلى المعنى. حتى أنه لو تركهما إلى خلافهما بما لا تجنيس ولا سجع فيه لنسب إليه ما ينسب إلى المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر.

وفي ذلك يقول: «ولن نجد أيمن طائراً وأحسن أولاً وآخرأ، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب إلى الاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيبتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس منها إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها.

فأما أن تضع في نفسك أنك لا بد من أن تجنيس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بغير قصد الاستكره، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم. فإن ساعدك ساعدكم ساعد المحدث - يعني أبا الفتح البستي - في قوله:

ناظراه فيما جنى ناطراً^١ أو دعاني امت بما اودعاني
وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله:

وأنجدتمو من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد
فذاك. وإلا أطلقت السنة العيب، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب، إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب^(١).

رد المعجز على الصدر

أول من تكلم عن هذا الفن البديعي اللفظي عبدالله بن المعتز،

(١) كتاب أسرار البلاغة ص ٤ - ١١.

فقد عده في كتابه أحد فنون البديع الخمسة الكبرى، وسماه «ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها»، وقسمه ثلاثة أقسام ومثل له نثراً وشعراً للدلالة على أنه يرد في الكلام بنوعيه. وأقسامه عنده هي:

١ - ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه مثل قول الشاعر:

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرماً في جيش رأى لا يفلّ عرمرم

٢ - ما يوافق آخر كلمة فيه أول كلمة في نصفه الأول، كقول

الشاعر:

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى سريع

٣ - ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه، كقول الشاعر:

عبد بني سليم أقصدت سهام الموت وهي له سهام

ومن هذا النوع عنده قوله تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات﴾ ^(١) وقوله تعالى أيضاً: ﴿ولقد استهزى برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ ^(٢).



أما المتأخرون من رجال البديع فعنهم من سمي هذا الفن «رد العجز على الصدر»، ومنهم من سماه «التصدير»، لأن هذه التسمية في نظرهم أدل على المطلوب وأليق بالمقام وأخف على المستمع.

والخطيب القزويني وهو من المتأخرين يقرر أن رد العجز على الصدر

(١) كتاب البديع لابن المعتز ص ٤٧.

يرد في النثر والشعر على السواء، ثم يعرفه بقوله: «وهو في النثر أن يُجمل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها. وهو في النظم أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو آخره أو صدر المصراع الثاني».

واللفظان «المكرران» هما المتفقان في اللفظ والمعنى، و«المتجانسان» هما المتشابهان في اللفظ دون المعنى، و«الملحقان بهما» أي بالمتجانسين وهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق.

فمن أمثلة المكررين وأحدهما في أول الفقرة والثاني في آخرها قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾.

ومن المتجانسين، أي المتشابهين لفظاً لا معنى وأحدهما في أول الفقرة والثاني في آخرها قول القائل: «سائل اللئيم يرجع ودمه سائل».

ومن اللفظين اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبهه، وأحدهما في أول الفقرة والثاني في آخرها قوله تعالى: ﴿استجفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ وقوله تعالى أيضاً: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾، ومنه حديث الرسول: «من مئت نفسه فقد آمنه الله من مقتته».

ومن اللفظين اللذين يجمعهما شبه الاشتقاق قوله تعالى: ﴿قال إن لعمركم من القولين﴾. فاللفظة الأولى هنا «قال» مشتقة من القول، واللفظة الأخيرة وأحدها «قال» بالتثنية اسم فاعل مشتق من القلي بكسر القاف وهو البغض، فيجمع بينهما شبه الاشتقاق من جهة اللفظ لا المعنى.



أما رد العجز على الصدر في الشعر فيرد على الصور التالية:

أ - في اللفظين المكررين :

١ - ما يكون أحد اللفظين المكررين أي المتفقين لفظاً ومعنى في آخر البيت والثاني صدر المصراع الأول. ومن أمثلته قول الشاعر:

تَمُنْتُ سَليماً أن أَموتَ صِباةً وأَهلونَ شيءٍ عَندنا ما تَمُنْتَ
وقول شاعر آخر:

سُكران: سُكر هوى وسكر مدامة أنى يُفنى فنى به سكران؟
ومنه البيت الثاني من شعر عمر بن أبي ربيعة:

ليتَ هَنداً أنجزتْنا ما تَعَدُّ وشفتِ أنفُسنا ما تَجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

٢ - ومنه ما يكون أحد اللفظين المكررين في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأول كما في البيت الثاني من قول الصمة القشيري:

أقول لصاحبي والعيس يهوى ^{مررت في كاهل من عظمى} بنا بين المنيفة فالضمار
تَمَنع من شَميم عرار نجد فما بعد العشرة من فرار^(١)
ومنه قول جرير:

سقى الرمل صوب مستهل غمامه وما ذاك إلا حبٌ من حلٍّ بالرمل
٣ - ومنه ما يكون أحد المكررين في آخر البيت والثاني في آخر المصراع الأول، كقول أبي تمام:

(١) العرار: وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة، وموضع «عرار» الثانية من الإعراب اسم «ما» التي بمعنى ليس، و«من» زائدة.

ومن كان بالبيض الكواعب مغرمًا فإني بالبيض القواضب مغرمًا^(١)

٤ - ومنه ما يكون أحد المكررين في آخر البيت والثاني في صدر

المصراع الثاني كالبيت الثاني من قول ذي الرمة:

أما على الدار التي لو وجدتها بها أهلها ما كان وحشاً مقلها
وإن لم يكن إلا معرج ساعة قليلاً فإني نافع لي قليلها^(٢)

• • •

ب - في اللفظين المتجانسين:

١ - ما يكون أحد اللفظين المتجانسين، أي المتشابهين لفظاً لا معنى

في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول، كقول القاضي الأرجاني:

دعاني من ملامكها سفاهاً فداهي الشوق قبلكما دعاني^(٣)

«دعاني» الأول فعل أمر بمعنى «أفركاني»، و«دعاني» في آخر البيت فعل



ماض من الدعاء بمعنى الطلب

٢ - ومنه ما يكون أحد المكررين في آخر البيت والثاني في حشو

المصراع الأول، كقول الشعالي:

وإذا البلايل أفصحت بلغاتها فانف البلايل باحتساء بلايل

(١) الكواعب: جمع كاعب وهي الجارية حين يبدو ثديها للنهوض، والبيض القواضب: السيوف القواطع.

(٢) أمّا: أنزلاً قليلاً، والتعريج على الشيء: الإقامة عليه و«معرج» خبر يمكن واسمه ضمير الإلام، وقليلاً مبتدأ مؤخر خبره «نافع» والضمير في «قليلها» للساعة، أي قليل الساعة في التعريج ينفعني ويبل أوامي ويروي شوقي إلى أهل هذه الدار.

(٣) سفاهاً: طيشاً.

«البلابل» الأول جمع بلبل وهو الطائر المعروف، و«البلابل» الثاني جمع بلبال بفتح الباء وهو شدة الحزن والحلم، و«البلابل» الثالث جمع بليلة وهو إبريق الخمر.

وموضع الشاهد هنا والمقصود بالتمثيل هو «البلابل» الثالث في آخر البيت بالنسبة إلى مجانسه الذي ورد في حشو المصراع الأول. فاللفظان كما ترى متجانسين، أي متشابهين لفظاً مختلفين معنى.

٣ - ومنه ما يكون أحد المتجانسين في آخر البيت والثاني في آخر المصراع الأول كقول الحريري:

فمشغوف بآيات الثاني ومفتون برنات المثاني^(١)

فلفظ «المثاني» الأول يراد به القرآن الكريم ولفظ «المثاني» في آخر البيت يراد به الزامير، فاللفظان متشابهان لفظاً مختلفان معنى.

٤ - ومنه ما يكون أحد المتجانسين في آخر البيت والآخر في أول المصراع الثاني، كقول القاهنوي:

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاح

«فلاح» الأول فعل ماض بمعنى ظهر وبدأ، و«فلاح» في آخر البيت اسم من الإفلاح بمعنى الفوز، فاللفظان متشابهان لفظاً مختلفان معنى.

ج - في اللفظين الملحقين بالمتجانسين للاشتقاق:

١ - ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق

(١) الثاني من القرآن: قيل القرآن جميعه لاقران آية الرحمة بآية العذاب، وتسمى سورة الفاتحة مثالي لأنها يثنى في كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد في كل ركعة، وهي المقصودة بالسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ لأنها سبع آيات، ورنات الثاني: نغمات الزامير.

وأحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول كقول البحري:
 ضرائب أبدعتها في السماح فلما نرى لك فيها ضربيا
 «فالضرائب» جمع ضريبة وهي السجبة والطبيعة والفطرة، يقال:
 هذه ضربيته التي ضرب عليها، أي طبع وفطر عليها، ويقال: فلان
 ككريم الضريبة، ولثيم الضريبة، أي الطبيعة. و«الضرب» في آخر
 البيت: النظير والمثل، «فالضريبة والضرب» راجعان إلى أصل واحد في
 الاشتقاق.

٢ - ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق
 وأحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأول، كقول امرئ
 القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فلمس على شيء سواء بخزان^(١)
 فالفعل «يخزن» وصيغة المبالغة «خزان» في آخر البيت مما يرجعان في
 الاشتقاق إلى أصل واحد *تخزين كميونهم*

٣ - ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق
 وأحدهما في آخر البيت والثاني في آخر المصراع الأول، كقول ابن عيينة
 المهلي:

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحة الذباب يضير؟
 «فضائري» و«يضير» مما يجمعهما الاشتقاق.

٤ - ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق

(١) المعنى: إذا لم يخزن المرء لسانه على نفسه ولم يحفظه مما يعود ضرره إليه، فلا يخزنه على
 غيره ولا يحفظه مما لا ضرر له فيه.

وأحدهما في آخر البيت، والآخر في صدر المصراع الثاني، كقول أبي تمام في رثاء محمد بن نهدل حين استشهد:

وقد كانت البيض القواضب في الوغى بواتر فهي الآن من بعده بُتْر^(١)
«فالبواتر» و«البتر» بضم فسكون يرجعان في أصلهما إلى اشتقاق واحد.

د- في اللفظين الملحقين بالمتجانسين لشبه الاشتقاق:

١- ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول، كقول الحريري:
ولاح يلحى على جري العنان إلى ملهى فحقاً له من لائح لاح
فهـ «لاح» الأول ماضي يلوح بمعنى ظهر، و«لاح» في آخر البيت اسم فاعل من لحاه بمعنى أبعد، فهما متجانسان لفظاً مختلفان معنى، ويجمعهما شبه الاشتقاق.

٢- ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأول، كقول المعري:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكمو والعذب بهجر للإفراط في الخصر^(٢)

(١) البيض القواضب: السيوف القواطع جمع قاضب، والبواتر: صفة أخرى هنا للسيوف بمعنى القواطع أيضاً لحسن استعماله إياها، وبتر بضم فسكون: جمع أبتّر، أي مقطوع الفائدة.

(٢) العذب هنا: يعني العذب من الماء، والخصر بفتحين: البرودة، والمعنى: أن بعدي عنكم إنما هو لكثرة ما أنعمتم عليّ وطرفتموني من الإحسان.

فلفظ «اختصر» الوارد في حشو المصراع الأول هو فعل ماض بمعنى قلل، ولفظ «الخصر» بفتحين في آخر البيت هو اسم بمعنى البرودة، فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى، ولهذا يجمعهما شبه الاشتقاق.

٣- ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما في آخر البيت والثاني في آخر المصراع الأول، كقول الحريري أيضاً:

ومضطلع بتلخيص المعاني ومطلع إلى تخلص عاني^(١)

فاللفظ الأول «المعاني» من عني يعني، والثاني «عاني» اسم فاعل من عنا يعنو، فالجامع بينهما شبه الاشتقاق.

٤- ومنه ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما شبه الاشتقاق وأحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الثاني، كقول شاعر:

لعمري لقد كان الثري ثرياً فاضحى الآن مثواه في الثرى
فاللفظ الأول «ثراء» واوي من الثروة وفعله «ثراء» يقال: ثرا المال يثرو: كثر، واللفظ الثاني في آخر البيت «الثرى» بمعنى التراب يائي، فعله «ثري» بكسر الراء، فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى، ولكن يجمعهما شبه الاشتقاق.

لزوم ما لا يلزم

هذا النوع من البديع اللفظي سماه قوم «الالتزام» و«لزوم ما لا

(١) المضطلع في الشيء: القوي فيه الناحض به، وتخلص المعاني: فكك الأسير.

يلزم»، وقد عده ابن المعتز من محاسن الكلام ومثل له، وعرفه بأنه «إعانت الشاعر في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له».

ومن أمثلته عنده قول الشاعر:

يقولون في البستان للعين لذة وفي الخمر والماء الذي غير آسن
فإن شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

وقد عرف القزويني لزوم ما لا يلزم بقوله: «هو أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع». ومعنى هذا أن يلتزم النثر في نثره أو الناظم في نظمه بحرف قبل حرف الروي أو بأكثر من حرف بالنسبة إلى قدرته مع عدم التكلف.

ولزوم ما لا يلزم من فنون السجع اللفظي الذي يرد في النثر والنظم على السواء، وقد ورد في القرآن الكريم شيء منه إلا أنه يسير جداً.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَعَقُبُوا عَلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَاسِ الْجَوَارِي الْكَؤُوسِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِنَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾. وعلى هذا النحو قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾. قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد.

ومن أمثلته نثراً قول ابن الأثير في مستهل كتاب إلى بعض الإخوان: «والخادم يهدي من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماء والآخر أرضاً، ويصون أحدهما نفساً والآخر عرضاً فاللزوم هنا في الرأى والضاد».

ومنه قول الحريري في المقامة الوبرية: وحكى الحارث بن همام، قال: ملت في ريق زماني الذي غبر، إلى مجاورة أهل الوبر، لآخذ آخذ نفوسهم الأبية، وألستهم العربية، فأوطنوني أمنع جناب، وقلوا عني حد كل ناب...^(١).

ومنه قول بديع الزمان الهمذاني في مقامته الجاحظية التي ينقد فيها كلام الجاحظ على لسان عيسى بن هشام: «فهلما إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معناه يحمله، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة مسموعة؟»^(٢). فمن كلام الحريري وبديع الزمان ما التزم فيه بحرف أو أكثر قبل حرف الروي.

ومن أمثلة لزوم ما لا يلزم في الشعر قول شاعر جاهلي: عصاني قومي والرشاد الذي به أمرت ومن يعص المجرب يندم فصبراً بني بكر على الموت أي أرى عارضاً ينهل بالموت والدم فاللزوم هنا في الميم والذال. ومنه قول أبي تمام:

خدم العلا فخدمته وهي التي لا تخدم إلا قوام ما لم تخدم فإذا ارتقى في قلة من سودد قالت له الأخرى: بلغت تقدم

(١) مقامات الحريري ص ١٩٦، وريق زماني: أوله، وغبر: مضى وتقدم، وأهل الوبر: هم أهل البدو، لآخذ آخذ نفوسهم: لاقتدي بهم، وأوطنوني: أنزلوني وأحلوني، وقلوا: كسروا.

(٢) مقامات بديع الزمان ص ٧٥، وعريان الكلام: ما لا يكسوه ثوب الصنعة، ومعناص الكلام: مخنمه مما تكثر فيه الصنعة فتبعده عن أذهان العامة.

وقوله أيضاً:

ولو جربتني لوجدت خرقاً يصافي الأكرمين ولا يصادي^(١)
جديراً أن يكر الطرف شزراً إلى بعض الموارد وهو صادي
فالزوم في المثال الأول لأبى تمام في الميم والذال، وفي المثال الثاني في
الذال والألف والصاد.

ومن الشعر العذب الذي لا كلفة عليه في باب اللزوم قول الحماسي:

إن التي زعمت فؤادك ملها
 بيضاء باكرها النعيم فصاها
 حجبت تحيتها فقلت لصاحبي
 وإذا وجدت لها وساوس مطوعة
 خلقت هواك كما خلقت هوى لها
 بلاقة فأدقها... وأجلها
 ما كان أكثرها لنا وأقلها!
 فضع الضمير إلى الفؤاد فسلها
 فاللزم في الهاء واللام

ومن الشعراء المتقدمين ~~الذين~~ ^{الذين} ~~كانوا~~ ^{كانوا} ~~يأخذون~~ ^{يأخذون} ~~بالتزم~~ ^{بالتزم} ~~في~~ ^{في} ~~شعرهم~~ ^{شعرهم} ~~كثير~~ ^{كثير} ~~عزة~~ ^{عزة}،
ومن شعره الذي التزم فيه ما لا يلزم قصيدة تربو على عشرين بيتاً منها:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا
وما كنت أدري قبل عزة ما الهوى
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
فما أنا بالداعي لعزة بالهوى
وإني وتهيأى بعزة بعدما
قلوصيكما ثم احللا حيث حلت
ولا موجعات الحزن حتى تولت
لعزة من أعراضنا ما استحللت
ولا شامت إن نعل عزة زلت
تخلت مما بيننا... وتخلت

(١) الخرق بكسر الخاء: الكريم المتخرق في الكرم الخالي فيه، ولا يصادي: لي ولا يذاجي ولا يذاري ويصاتي.

لكالمريجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقييل اضممحت
 كاني وإياها سحابة محل رجاءها فلما جاوزته استهلكت
 فإن سأل الواشون: فيم هجرتها؟ فقل: نفس حر سُلِّيت فتسلت^(١)
 ومن مالوا إلى اللزوم من المتقدمين أيضاً عبدالله بن الزبير الأسدي،
 وذلك كقوله من قصيدة في مدح عمرو بن عثمان بن عفان:

مأشكر عمراً ما تراخت مني أيادي لم تمنن وإن هي جلت^(٢)
 فقي غير محبوب الغنى من صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت^(٣)
 رأى خلتي من حيث يخفي مكانها فكانت قلدي عيني حتى تجلت^(٤)
 فاللزوم في شعر كثير عزة وابن الزبير الأسدي هو في الثاء واللام
 المشددة.



والتزام ما لا يلزم للمتن المتقدم كما يبدو من شعرهم يأتي عفو
 الحفاط غير مقصود ولا تجميل، ولذلك لا يرى عليه من أثر الكلفة أو
 الصنعة شيء.

أما المتأخرون فتوسعوا فيه وأكثروا منه، ومنهم من تعمده وقصد إليه
 قصداً، كأنما يريد أن يدل بذلك على قدرته في النظم وسعة إحاطته
 باللغة ومفرداتها.

ومن أولئك الشعراء أبو العلاء المعري فله في هذا النوع من الشعر

(١) أمالي القتالي ج ٢ ص ١٠٧.

(٢) لم تمنن: أي لم تقطع ولم تخلط بمنة.

(٣) إذا النعل زلت: زلة القدم والنعل كناية عن نزول الشر والمحنة.

(٤) خلتي: الخلة بفتح الحاء: الخصاصة والفقر.

ديوان كامل سماه «اللزوميات» أن فيه بالجيد الذي بحمد، والرديء الذي يلم.

ومن شعره الذي التزم في قافيته ما لا يلتزم قوله:

أرى الدنيا وما وصفت ببر إذا أغنت فقيراً أرهقته
إذا خشيت لشر عجلته وإن رُجيت لخير عوقته
حياة كالحبالة ذات مكر ونفس المرء صيداً أهلكته
فلا يخذع بحيلتها أرب وإن هي سورته ونسلته
أذاقتها شهياً من جناها وصدت فاء عما ذوقته

فاللزوم هنا في الهاء والتاء والقاف.

ومنه أيضاً قوله:

تنازع في الدنيا سواك ^{ومسأليها} ولا لك شيء بالحقيقة فيها
ولكنها ملك لرب معظم ^{يعبر جنوب الأرض مرتد فيها}
ولم تحظ من ذاك النزاع ^{بمخالفة} ^{عن الأعرابي} إلا أن تعد صفها
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها فمتفقوها مثل مختلفيها
تداعوا إلى التزور القليل فجالدوا عليه وخلوها لمخترفيها
ومما أم وصل أو حليلة ضيغم بأظلم من دنياك فاعترفيها^(١)
تُلاقى الوفود القادميها بفرحة وبكي على آثار منصرفيها
فأطبق فماً عنها وكفاً ومقلة وقل لغوي القوم: فاك لفيها^(٢)

(١) فاعترفيها: أي لمسأليها أينها النفس، وربما وضعوا اعترف بمعنى عرف، وعمل هذا يكون المعنى فاعترفيها: أي اعرفي حقيقة دنياك يا نفس.

(٢) فاك لفيها: كلمة تستعملها العرب عند الدعاء بالكره والشماتة، وأصل ذلك أن السباع إذا تهاشمت صرلت أفواهها بعضها لبعض.

فاللزوم هنا في الهاء والياء والفاء، وقد التزم مع حرف الروي بحرفين.

ويجدر التنبيه هنا إلى الفرق بين لزوم ما يلزم ولزوم ما لا يلزم في القوافي. فمن باب لزوم ما يلزم قول الشاعر:

في شعاب النسيان أفردت وحدي فعبرت الأيام حياً كميت
أجد الغدر والعفوق من النا من وألقى السظلام في عقر بيتي
والعذاب الروحي في ليل الدا ثم أوردى دمي وأنضب زيتي
فتعالي... وفي يدك انطلاق من فجاج النسيان أما أتيت

فحرف القافية هنا هو التاء والياء قبلها حرف ردف يلتزم به الشاعر في جميع أبيات القصيدة والمعدل عنه إلى أي حرف آخر كأن يقول مثلاً «حضرت» بدل «أتيت» يعد عيباً في القافية.

أما في لزوم ما لا يلزم كما هو الشأن في قوافي الأبيات السابقة لكثير هزة، وابن الزبير الأحمدي والمصري، فاللزام هو حرف القافية فقط، أما ما عداه مما ألزم الشاعر به نفسه حرفاً كان أو أكثر فهذا يجوز للشاعر أن يلتزمه أو يعدل عنه ولا يعد في الوقت ذاته عيباً من عيوب القافية.

فلو التزم الشاعر حرف الراء مثلاً قبل القافية في قصيدة بعض كلمات قافيتها مثل «شرق، وشرق وشرق»، فإنه يجوز له أن يبقى على هذا الالتزام، كما يجوز له أن يعدل عنه ويقول: «شرق، ومشرق، وخلق» دون أن يعد ذلك عيباً في القافية.



ولزوم ما لا يلزم هو، كما يقول ابن الأثير، من أشق هذه الصناعة مذهباً وأبعدها مسلكاً، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه. فإن اللازم في

هذا الموضوع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء
الفواصل من الكلام المنشور في قوافيها. وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن
تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً، وهو في الشعر أن تتساوى
الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية^(١).

ومما لا ريب فيه أن هذا النوع من أصعب أنواع البديع اللفظي
استخراجاً، ولكن بما لا ريب فيه أيضاً أنه يعد من محاسن الكلام، إذا
وفق فيه الأديب فجاءه عفواً الخاطر بدون تكلف ولا تعمل، وكان المعنى
هو الذي يقود إليه ويستدعيه، وليس هو الذي يقود إلى المعنى.

الموازنة

الموازنة نوع من أنواع البديع اللفظي يقع في النثر والنظم: وهي
تساوي الفاصلتين في الوزن ~~دون التقفية~~، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنَاقِبُ
مَصْفُوفَةٍ وَزَوَاجٍ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾.

لفظاً «مصفوفة» ~~ويقال: مِثْقَالِ ذَرَّةٍ~~ في الوزن لا في التقفية، لأن
الأول على الفاء والثاني على التاء، ولا عبرة لتاء التانيث لما هو معروف في
علم القوافي.

وقد فصل ابن الأثير الكلام عن الموازنة بعض الشيء فقال: «هي
أن تكون ألفاظ الفواصل في الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون
صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً. وللکلام بذلك طلاوة
ورونق وسببه الاعتدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع
الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مرأى فيه
لوضوحه».

(١) المثل السائر ص ١٠٦.

وهذا النوع من الكلام أخو السجع في المعادلة دون المماثلة، لأن في السجع اعتدالاً وزيادةً على الاعتدال، هي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد.

وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ولا تماثل في فواصلها، فيقال إذن: «كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً، وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة»^(١).

ومما ورد من الموازنة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالمستبين والمستقيم موازنة، لأنها تساوى في الوزن دون التقفية.

ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَلَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا، أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَذِّعُهُمْ أَوْ هَزَّجْنَاهُمْ وَفَصَّلْنَا صَفًّا، فَكَيْفَ يُجْعَلُ عَلَيْهِمْ إِثْمًا نَعْدُ لَهُمْ عِدًّا﴾. فالموازنة هنا بين «عزاً وضدّاً» وبين «أزاً وعداء» فقد جاء كل زوج على وزن واحد، وإن انحطت أحرف التقفية أو المقاطع التي هي فواصلها. وأمثال هذا في القرآن كثير بل معظم آياته جارية على هذا النهج، حتى إنه لا يكاد يخرج منه شيء من السجع والموازنة.

ومن أمثلة الموازنة شعراً قول ربيعة بن ذؤابة:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعنينة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأساً على أصحابه وأعزهم قدماً على الأصحاب

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة فإن «بأساً» و«قدماً» على وزن واحد، دون التقفية.

(١) المثل الثامن ص ١١١.

ومنها قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذرايل^(١)
فالموازنة تامة بين كل لفظة وما يقابلها في المصراعين ما عدا لفظي
«هاتا وتلك».

ومنها قول أبي تمام أيضاً، والموازنة تامة بين جميع ألفاظ الشطر الأول
وما يقابلها من ألفاظ الشطر الثاني :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهرينا
ومن أمثلة الموازنة كذلك قول الشاعر :

صفوح صبور كريم رزين إذا ما العقول بدا طيشها
ففي الشطر الأول من البيت موازنتان : الأولى «صفوح صبور»
والثانية «كريم رزين» وقد تساوى اللفظان في كل موازنة وزناً واختلافاً
تقنية.

مركز تقيت كمبيوتر علوم إمدى

التشريع

التشريع، ويسمى التوشيح والتوأم، هو بناء البيت على قافيتين
يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما.

وتفصيل ذلك أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على وزن من أوزان
الشعر وقافيتين. فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعراً مستقيماً
من وزن على عروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بني عليه شعره من القافية

(١) لها: جمع مهاة وهي هنا البقرة الوحشية، والخط، موضع تنسب إليه الرماح المستقيمة.
والشاعر يصف هنا الأوانس أو النساء بسعة العيون وطول القدود.

الأخرى كان أيضاً شعراً مستقيماً من وزن آخر على عروض، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح.

والتشريع لا يكاد يستعمل في الكلام المنشور المسجوع إلا قليلاً وليس من الحسن في شيء! واستعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنشور. ومن أمثله شعراً قول بعضهم:

أسلم ودمت على الحوادث مارساً ركناً ثبيراً أو هضاب حراء
ونيل المراد ممكناً منه على رغم الدهور وقز بطول بقاء

فهذان البيتان من وزن «الكامل» التام المؤلف من «متفاعلين» مكررة ست مرات وقافيتهما الهزئة. فإذا أسقطنا من كل بيت تفعيلين فإن البيتين يتقلان إلى مجزوء الكامل ويصيران:

أسلم ودمت على الحوادث مارساً ركناً ثبيراً^(١)
ونيل المراد ممكناً منه على رغم الدهور

وقد استعمل ذلك في قصيدة كاملة معروفة في مقاماته منها:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحككت في يومها أبكت غداً بعداً لها من دار

فالقصيدة التي منها هذان البيتان من وزن الكامل التام أيضاً والقافية الراء، فإذا أسقطنا هنا تفعيلتين صار البيتان من مجزوء الكامل والقافية الدال هكذا:

(١) ثبير: الجبل المعروف عند مكة، وحراء: جبل بمكة فيه غار، وكان الرسول قبل أن يوحى إليه يأتيه ويخلو بغارهِ فيتحنث فيه، أي يتعبد لله.

يا مخاطب الدنيا السديّة إنّها شرك الردي
دار مستى ما أضحككت في يسومها أبكت غدا
وقد ظهر «التشريع» قبل كلام الحريري في كلام العرب المتقدمين،
من نحو القائل:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرمال بكثيها شمالا
أفيتنا نقرى المبيط لضيفنا قبل القتال ونقتل الأبطالاً^(١)
فالبيتان من وزن الكامل التام كذلك والقافية اللام، وبإسقاط
تفعيلتين ينتقل البيتان إلى وزن آخر هو مجزوء الكامل وإلى قافية أخرى هي
اللام أيضاً هكذا:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرمال
أفيتنا نقرى المبيط لضيفنا قبل القتال

ولا شك أن هذا النوع لا يأتي إلا بتكلف زائد وتعسف، وحسنه
منوط بما فيه من الصناعة لا بما فيه من البلاغة والبراعة. ومن ثم لا يحسن
إلا إذا كان يسيراً، كالرقم في الثوب أو الشية في الجلد كما يقول ابن
الأثير.

وأوسع البحور في هذا النوع «الرجز» الذي يتألف من «مستفعلن»
ست مرات، فإنه قد وقع مستعملاً «تاماً» و«مجزوءاً» و«مشطوراً»
و«منهوكاً»، فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قواف.

(١) المبيط: الذبيح، ويقال: اعتبط الإبل والغنم إذا ذبحها لغير داء، وتقرى المبيط
لضيفنا: أي نحسن إلى ضيفنا ونقدم له من طعامنا خير ما نذبح من إبلنا أو غنمنا المبراة
من الأضواء.

ولعل في النموذج التالي من شعر محمد بن جابر الضرير الأندلسي ما يوضح ذلك. قال:

يرنو بطرف فاطر مها رنا فهو المني لا أنتهي عن حبه
يهفو بنصن ناظر حلو الجنى يشفي الضنى لا صبر لي عن قربه
لو كان يوماً زائري زال العنا يحلو لنا في الحب أن نسمى به

فهذه الأبيات من الرجز التام، فإذا تركناها على حالها فهي من الرجز التام والقافية الباء، وإذا أسقطنا منها تفعيلتين من آخر كل بيت صارت من الرجز المجزوء والقافية النون هكذا:

يرنو بطرف فاطر مها رنا فهو المني
يهفو بنصن ناظر حلو الجنى يشفي الضنى
لو كان يوماً زائري زال العنا يحلو لنا

وإذا أسقطنا تفعيلة من آخر كل بيت من مجزوء الرجز هذا صارت الأبيات من مشطور الرجز والقافية النون أيضاً هكذا:

يرنو بطرف فاطر مها رنا
يهفو بنصن ناظر حلو الجنى
لو كان يوماً زائري زال العنا

وإذا عدنا فأسقطنا تفعيلة من هذا المشطور صارت الأبيات من منهوك الرجز والقافية الراء هكذا:

يرنو بطرف فاطر
يهفو بنصن ناظر
لو كان يوماً زائري

ولعلنا لاحظنا من كل ما سبق أن التشريع كنوع من البديع اللفظي
إذا أسرف الشاعر منه في القصيدة الواحدة أسقطها وأحالها إلى نوع من
الصناعة الباردة الغثة، وأن أحسنه ما جاء فيها قليلاً عفو الخاطر.



مرکز تحقیق ونگارش و نشر



مرکز تحقیقات تکلیف‌پویان علوم اسلامی

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
نشأة البديع وتطوره	٧
فنون علم البديع	٧٥
المحسنات البديعية المعنوية:	
المطابقة	٧٦
المقابلة	٨٤
المبالغة	٩١
الإغراق	١٠٠
الغلو	١٠٥
الايغال	١١٢
التتميم	١١٧
التورية	١٢٢

١٣٤	التقسيم
١٤٢	الالتضات
١٥٥	الجمع
١٥٦	التفريق
١٥٨	الجمع مع التقسيم
١٦٠	الجمع مع التفريق
١٦٢	الجمع مع التفريق والتقسيم
١٦٤	تأكيد المدح بما يشبه الذم
١٧٠	تأكيد الذم بما يشبه المدح
١٧٠	المذهب الكلامي
١٧٥	اللف والنشر
١٧٩	مراعاة النظر
١٨٢	أسلوب الحكيم
١٨٩	التجريد
		المحسنات البديعية اللفظية:
١٩٥	الجناس
٢١٥	السجع
٢٢٤	رد العجز على الصدر
٢٣٢	لزوم ما لا يلزم
٢٣٩	الموازنة
٢٤١	التشريع